أغنية بوهيميا

تأليف

كمال أمين

obeikandl.com

obeikandl.com

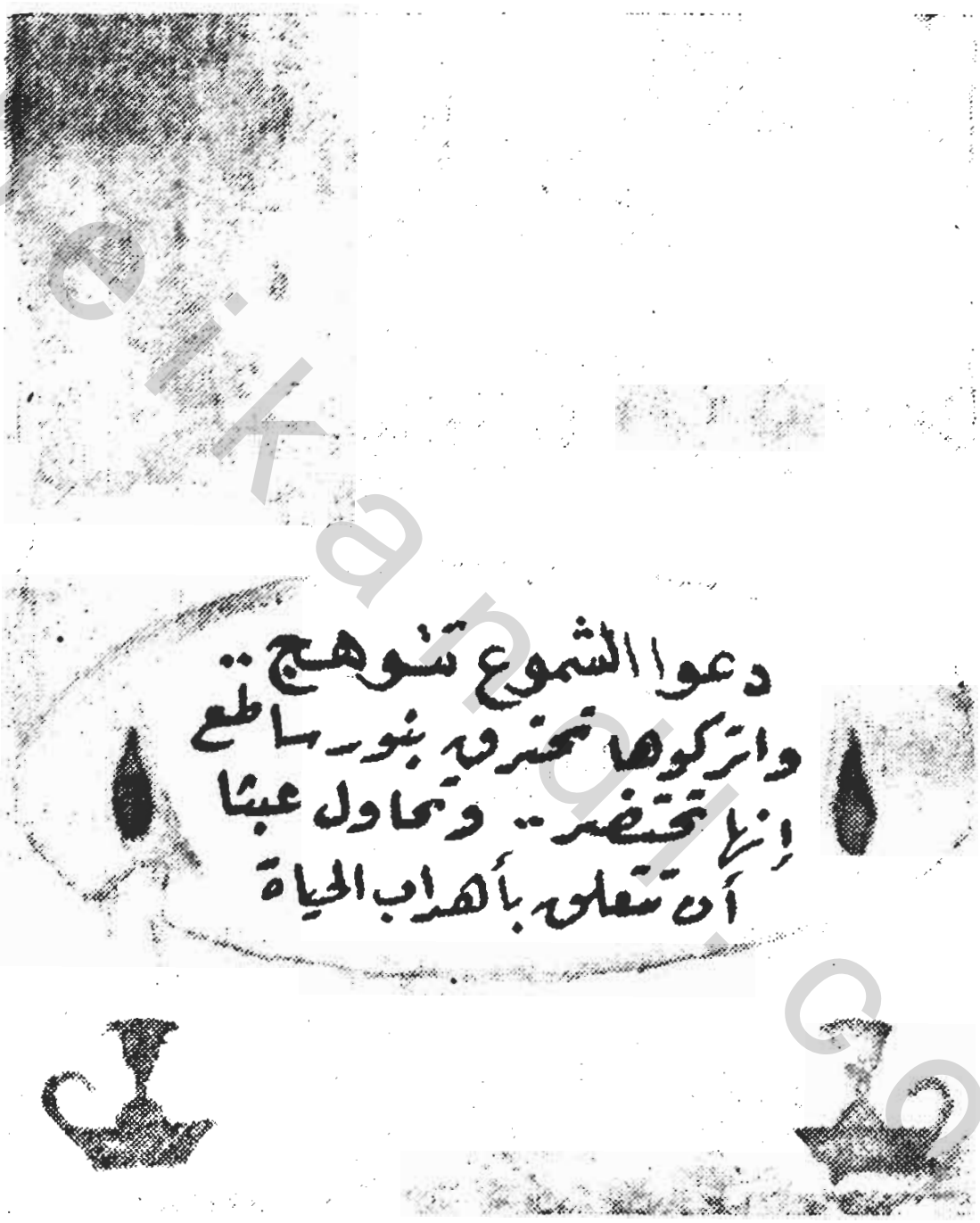
دعوا الشموع تتوهج..
واتركوها تحترق بنور ساطع
إنها تحتضر.. وتحاول عبثا
أن تتعلق بأهداب الحياة

مقدمة

الآن يا عزيزى القارىء ، أود أن أقدم لك مؤلف هذا الكتاب ؛ إنه لن يكون من هؤلاء الذين تحدثت عنهم الأساطير . فهو شاب نحيل طويل وكل ما يلفت النظر فيه جبهته العريضة التى تحتل رقعة كبيرة من وجهه ، وشعره الأسود الناحل ، وبشرته النحاسية ولن أنسى كذلك ان أقدم لك أنفه المستقيم الطويل كقنطرة عظيمة تخترق هضاب وجهه ، وعينيه العسليتين الضيقتين ونظرتهما الحادة القوية حيناً والمؤلمة الحزينة أحياناً . قد تحسبه إنسانا متعالياً متكبراً فتتحول عنه وأنت ترمقه بنظرات مستخفة ، وقد تسوقك الصدف أيضاً لتجليس إليه وتختبره فتجده إنسانا رقيق القلب لا يضمر خبثا أو تعاليا . ستجده كثيراً ما يشرد وتختطفه عوالمه البعيدة التى لا يمكن أن تبلغ مداها . إنه يعيش سجينا فى عالم الفكر وفى عوالم أخرى مظلمة قاحلة تختطفه من مباهج هذه الحياة . قد يضحك ، ولكنك لن تعرف أن دموعا تتدافع خلف عينيه . فهو يعيش وحيداً مع الألم ، ممزق القلب تائها فى ضروب حياته المتجهمة . إنى لن أثير شفقتك عليه فقد تعود أن يحتمل ويقاسى فى صمت ودون أن يشكو لأحد ، ولكن كان لا بد له من منفذ يتفث منه بعض آلامه فراح يسكبها فى كلمات على الورق معالجاً مشكلة حياته المعقدة . إنه لن يثقل عليك هنا بقصته سافرة ، ولكنه سيقدم لك شتاتاً منها موزعاً فى كل قصة من قصص هذا الكتاب ، وستعترف معى أنك أمام شخصية معقدة .

عزيزى . . كم أتمنى لو أنه كان إنساناً آخر مجرداً من سلطان الفكر يقبل الحياة على أوضاعها وعلاتها ، ولكن هكذا شاءت له المقادير ، وليس له دخل فى ذلك ، فاقرأ وحاول معى أن تصل إلى حل للغز نفسيته المعقدة ، وإذا صادفك التوفيق تكرم بمراسلتى عما وجدت ، عسى أن نجد علاجا لصديق البغيض إلى نفسه ؟

(المؤلف)

obeikandl.com

لغـــة القيثار

(من الوصف التصويرى)

لم تكد تحتجب الشمس خلف ثنايا الأفق حتى راحت تحوم على المكان أطياف من الظلمة الهابطة تكسو المرئيات بالغموض والإبهام بينما ارتفع صوت الضفادع والهوام فى تهليل متكرر ترتل نشيد الظلام وتستقبل هجعة الليل . . وبدأ قبس من النور يلمع فى أعماق الظلمة المحتشدة كالأمل فى أحشاء نفس حزينة .

وهذه أناشيد الليل تصعدها المياه الساكنة . وتلحنها الأشجار النائمة ، كأنها صلوات سرمدية تتقدم هيكل الظلام المغمور . كم تعيش فيها من ذكريات وكم تكفن من حوادث وأزمان ، وقد تمر عليها العصور وهى فى لحنها الخالد الذى لا يتغير ، مزيج من نشيج وبكاء ، وضحك وابتسام وسعادة وشقاء يتنازعان . . . تلك الوحدة القاتلة التى تقضى على النفس . . وذلك السكون الذى يهدئها . . تلك النسمة الرطبة المنعشة هى النسمة الباردة الساهمة ، تحمل فى أطوائها الموت ، وتسوق طريقها إلى القبور . . . تلك المياه المتسلسلة فى خريرها المحبوب ، هى الموجة الدافقة فى هديرها المشئوم ، هنا يجتمع الأمل باليأس ، والذكرى بالعبرة والحياة بالفناء .

وإذ يرتفع القمر بوجهه الضحوك ، ويلقى على مسرحها كشفاً من النور يبدد الظلمة ، تلمس أشعته قيعان النفس المظلمة ، فيستطع فيها النور وتلمع فيها الذكريات . . وهنا يظهر الفنان بشعره المنفوش ، ونفسه المعذبة وروحه الجريح ، تائهاً بين أحضان الطبيعة الرحبة ، رافعاً أغانيه مردداً أمانيه ، فلهذه الأشجار أغنية تدفىء ثمارها وللأفنان لحناً يطرق أوكارها ، وتلك المياه نغم يهوى إلى غمارها . . كم يحمل بين جنبيه من مشاعر ، إنه يحمل مايثقلهما وهو يورعها على كل الكائنات الصغيرة ، فلهذه الفراشة كلمة وتلك الزهرة

قبلة ، وللسماء الزرقاء أناشيد يمازجها الفرح بالبكاء . . . قل لى أيها القمر ما هذه الابتسامة التى ترتسم فى محياك ؟ ! أهى سرور اللقاء أم فرحة البقاء ولم انسكبت على الأشجار ولمعت وبرقت مع ساسبيل الماء ؟ ! ولم طاردت جحافل الليل وجيوش الظلام فولتك الأدبار ؟ ! هل تبحث عن حبيب لك بعيد عنك فأطللت من عليائك على هذا الكون ؟ أين هو هذا الحبيب الغادر الذى يدعك وحيداً وليس معك ؟ ؟ ولم لم يأت كى يطارحك الهوى ويملأ من شعاعك كأس الغرام ؟ ! فهل غابت عنه فتنتك أم أثقل النوم جفنيه ؟ سأرسل نغمات قيثارتى كى تطرق لك ذلك الدار وتلك النافذة علها تجد بغيتك الحائرة بين ضلفتين أو فى ثغرة صغيرة يختلس منها النظر إليك . . هل تذكر كم كانت متيمة بك ملهوفة بالشوق إليك ؟ وكم كانت تقف فى هذه الشرفة وأنت تضىء من حولها المكان وتلمع فى وجهها وثغرها ، ما كان ألذه من عناق ، ذلك العناق الحار بينك وبينها ، وكم نعمت بمشاهدتكما متزاملين فكنت أختلس منكما فنى ، وأجدكما مهبطاً لشعرى . . ولكن . . . ، انظر الآن إن النافذة لاتزال مغلقة والسكون يخيم على المكان ، أهو سكون الموت أم كر الزمان ؟ وماذا وجد شعاعك الحائر وقد استطاع أن يقتحم الشرفات ؟ . . أوجدها ؟ . . . أم وجد طبقات من النسيان قد تراكمت على الحوائط والجدران ؟ . . وها هى أنغامى الحائرة ترتد إلىّ بعد أن جابت من أجلها الوديان والقيعان ، وهاهى وقدة الجوى تستعر فى القلوب والوجدان ونفسى تذوب وتصعد فى أنغامى حزينة باكية يتقطر منها الدمع ويصرخ بها الألم ، فأين منى ومنك طلعتها البهية وقد أوصدت عليها المنافذ فلم تعد تبدو منها لمحة ، فيا لهذه الجدر الصماء ، ويا هذا البناء الأبكم . . . أين ذهبت ؟

لقد هجرت المكان والزمان وتركت وكرها الجميل تحوم حوله الخفافيش

فاين ابتسامتها المشرقة كى تجلو صدأ نفسى ؟ وأين حنانها كى يدفىء قلبى المقرور ؟ وأين العطر الذى كان يملأ الحياة بهجة وأناشيداً ؟ لقد مرت الأيام تجر ستارها على الذكريات ، ولكن عاصفة هوجاء تجتاح نفسى وتجتاحها دائما ، فتكشف عنها الستار ؟ وها أنا أعلق أنغامى فى جو المكان عله يصل إلى ذنيها و يحمله النسيم إليها رسائل حب ووفاء .

وينسحب القمر وفى وجهه شحوب ، وفى عينيه دمع يترقرق ، إنه يرسل للكون نظرات تائهة ، ثم لا يلبث أن يختفى تحت الأفق ويذهب فى رحلة بعيدة . . .

أغنية بوهيميا

تبدو كغزال نافر فى دثار شفيف ، تقرع بيدها رقا فترى يدها صاعدة تقرع الرق المستند إلى صدرها ، نازلة ترتكز على ركبتها العارية ، وكأنها تؤدى صلاة عميقة أمام هيكل مقدس ، تلمع حولها آلاف من الأضواء الخاطفة تعكسها قطع صغيرة من المعدن المصقول موزعة فى رقعة ثوبها ، وهى تملأ من السنى المتلألىء كأساً تلو الكاس وتجرعها عامرة مترعة ، فتلمع الفضة المنسكبة فى ثغرها ، وتتماوج السبائك فى جدائل شعرها ، هاهى ترقص نشوانة تدور خفيفة على أطرافها ؛ تلفها الأضواء تارة وتحجبها الظلال أخرى ، وهى إذ ترفع وجهها للنور يقبلها وصدرها للسما، تباركها . . .

إلى أيها النغم الرفيع ، وحرك منها سيقانها العارية ، واملأ بالنشوة شبابنا المزدهر ، واصدح فينا بالربيع ، وهى ترقص فتضرب الأعشاب النابتة على شاطىء النهر الساذج المنير ، فينعكس خيالها على مياهه المهدهدة وترتسم لها صورة حية .

تعالى نرق أعالى الأشجار ، ونشارك العصافير لغة الأطيار ، ونبنى لنا عشاً نثبته بالحب وندعمه بالجمال . . أعطنى يدك البضة الجميلة واتركينى أقبلها قبلات ، ثم آخذها وأسمو فوق صفوف السحاب وكتل الغمام ، ونصبو أرضاً جديدة نجتلى ما فيها من إبداع ، ثم نبنى لنا عالماً مليئا بالآمال سعيداً بالأحلام وتكونين لى وحدى وأنا لك وحدك . . . أنظرى إلى عينى ألا ترين فيهما حبى ؟ . . واسمعى كلمى . . ألا ترين فيه التهاب عاطفتى .

جردى نفسك عن ردائك وهبى لى كل مفاتنك . . لا تحرمينى ما أشتهى ودعينى ألمس ما تحملين من ناضج الثمار ، ومالك من يانع الورود والأزهار وما فيها من شهد ورحيق ، واتركى الأشجار الصامتة والطبيعة الساكنة تسبل علينا من سكوتها ستاراً ، وتطوى ما تكشف لها عنا من أسرار .

ويحاه يا قلبى إنك تعيش فى عالم مفتون ؟ ملىء بأنواع السحر فائض بأصناف الجنون . وهى بين يدى وكأن الدنيا بأسرها فى يمينى ؟ ولكن كم أخشى أن تحطم الأيام برجى العاجى وأهوى إلى الأرض فيتحطم قلبى وقيثارى . . .

قربى عينيك منى ، واتركى لى أن أغوص فى جو من الصفاء . . إنى أرى فى لحظك جنات من الحب وارفات ، تسطع فى سمائها أنوار الرحمة البيضا . وتغرد فى قبتها أغان كلها أمل ورجاء . . ولكنى أكاد أتبين بعيداً فى أحشاء الصفاء غمامة قادمة . . ها أنا أقترب منها رويداً رويدا . . ويحاه . . إنها كهوف ومغاور للشيطان ، يربض على مدخلها تنين الأنانية والبغضاء . . . ولكن مالى أنظر هكذا بعيداً فأفلت من النعيم إلى الجحيم ، وانساق من هيكل الحب إلى مباءة الفساد .

أنفاسك العاطرة إذ تلفح وجهى تضرم فى قلبى أتونا من النار ، وشفتاك تلكما البرعمة الرابية ، ما أحلاهما وما أعذب ما بهما من رحيق . ضعيهما

فى فمى . واسقنى بلحظك والهبنى بأنفاسك ، واسكرينى من شهدك . . . واسندينى إلى صدرك . تلك جنتى الوارفة ونعيمى المفقود ، واطفئى اللظى الملتهب فى قرارى المحموم . . وعندما أفيق بعد هنيهة ، على صوت قرعك الرنان بالدف والصيمان . . تعالى نرفع للسماء أغنية ، نجوبها حيرى فى قبتها فتطرق كل جحر ودار ، وتدخل الغرف السوداء الداكنة التى يقيم بها وحيد فتسكب من شدوها على قلبه فرحة وتلمس قلبه المحزون بالشفاء .

(تعليق)

هى غجرية قابلتها فى قرية من قرى الريف ، شاءت الأيام أن أعيش بها زمناً . . كانت تشبه كثيراً فى تقاطيعها الممثلة الفاتنة هدى لامار ، قدمنى إليها صديق بعد أن قص على طرفاً من مغامراته معها . . كانت من ذلك النوع الذى لا يحفل إلا بملاهى ومتع الحياة . . . فكانت زهرة برية تفتح قلبها لكل حشرة ، وتنشر عبيرها إلى أقصى ماتستطيع ، فلم أحفل بها كثيراً إذ كان شعورى بالظمأ الروحى يقف بينى وبين مطالب الجسد التى كانت على استعداد أن تلبيها دون ثمن ، ولكنى كنت أحلم بالحب العميق المبنى على التضحية ، ذلك الحب الذى يمسح آلام النفس المعذبة ويشفى جراح القلب الكليم . . ، وذات أمسية كنت خلف نافذتى ارفع للبدر المكتمل انغام السرنيد وهو يسكب نوره الوديع على الحقول الخضراء المنبسطة وفوق اشجار النخيل الراقصة الحالمة . . كنت ارفع انغامى إلى المجهول ، وإلى الفراغ الذى تطويه تلك الرياض المستسلمة للسكون ، وأنا اشرف عليها من عل وبغتة دقت النافذة حصاة صغيرة لم احفل بها وانا مستغرق فى نجواى ، وتكررت قوية واضحة ، فنحيت القوس عن الاوتار غاضباً اتلك الدعابة السخيفة ، وانحنيت على حافة النافذة اطل على الطريق الضيق الصغير

وجدتها فى لباسها الترترى الشفيف ، ورفعت إلى وجهها الجميل بعيونه الوادعة وابتسامته المشرقة وسألت ان اعزف لها لحنا راقصا ، فوقفت فى نافذتى مترددا فقد كنت اخشى التقاليد ، واخشى التقولات والتخرصات ، إذ كنت إنسانا نظيفا طاهرا لم تدنسه الحياة بعد ، ولم تلطخه ادرانها ، وكدت ارفض وانحنيت من جديد على حافة النافذة لأبلغها قرارى ، ولكن عيناها سحقتا عزيمتى . . كان فيهما ذلك التوسل الملهوف والرجاء المتسائل الذى سرعان ما ردنى إلى الداخل لأعزف بكل أعصابى اللحن الراقص (رقصة بديعة) ووثبت هى إلى حائط الحقل المقابل اللبنى ، وراحت تثب فى خفة الجداء ، تثنى جذلة نشوانة ، كما جاء فى مقالى السابق ، وأحسست بيد قاسية تعتصر روحى ، فقد كان جمالها خلابا ساحرا ، ولكنه كان فى رأيى رخيصا مبتذلا ، فلم أشأ أن أنزل من برجى إلى أرضها الندية ، وظللت دائما أحلم بها وأتمناها وحالت بينها وبينى مثلى العليا التى قامت عليها حياتى . . . وكانت هى ترجو وتتوسل إذ ظنت أنى قد أكون رائدها الذى يستطيع أن ينتشلها من بيئتها الوضيعة ويقدمها إلى المسرح . . .

كانت ريشة الزمن البارعة تضفى على شبابها الطليق كل يوم جديد ، وأنا آكلها بنظرة الجائع المشتهى حتى إذا قاربت غابتى سارعت إلى الفرار ، ونما فى قلبى المتعالى مزيج من الخوف والحقد والاحتقار . . .

سرعان ما زفت امرأة مشتهاة فى مثل جمالها ، ورحت أرقبها من شرفتى وهى ترقص مع فتيات العائلة على حصير كبير مفروش ضرب الرجال حوله حلقة ، يدقون الطبول أو يزمرون تحت النخلات المتأنقة المتسامية ، ورفعت هى إلى وجهها ، وراحت ترقص رقصات جامحة خلت فيها ألسنة اللهب ، وخلت فيها العاصفة الهائجة ، وخلت فيها الطائر الذبيح فانثنيت إلى الداخل لأنطوى على نفسى ، وأسمح لقطرات الأسى المرة أن تقطر فى أعماقى .

وهكذا رحلت (؟) عن ذلك المكان لتخلف وراءها فراغا مملا موحشا ، رحت أجوب أطرافه أسائل الزهر وأسامر النهر وأعانق النخل والشجر ، ولكنها رحلت دون رجعة ، وأصبحت فى خبر كان .

إن النغم ليعود وحيدا مريرا يشكو ويبكى ويتألم والأيام تمضى ونعبرها بحلوها ومرها . والأمس لن يعود . .

كنت أرقب فتيات القبيلة وهن يرقصن فلم أجد لإحداهن جسدها اللدن بل وفنها الرفيع وسألت زوجها قارع الطبول عنها فابتسم ابتسامة ساخرة وسأل

— ماذا تريد منها ؟ . . قلت وأنا أشعر بالمرارة

— إنه الشوق يا صاحبى . . . ألا تعرفه ؟ فهمس ساخرا

— كانت بين يديك فماذا فعلت بها . . ها ها . ماذا فعلت بها ؟

— لا شىء . لا شىء . . . ولكن خبرنى . . . أين ذهبت الآن ؟

— بعتها يا صاحبى انظر . . . ومد يده إلى صدره وأخرج حزمة من الأوراق المالية ، وابتسم عن أسنانه الصفراء وهو يدسها فى صدره من جديد قائلا :

— هذا هو الثمن يا صديقى . . ودوت من جديد ضحكاته الساخرة . .

متحف الذكريات

سكون مخيم يقطعه بين آونة وأخرى صوت اصطدام الحديد بالحجر ، وصوت تناثر قليل من الشظايا ، ونقترب رويداً رويداً من مصدر الصوت ونحن نجوب حجرات الدار المنسقة والتي تتزين جدرانها بمجموعة من الصور والرسوم والتماثيل الجميلة .

نحن الآن فى دار المثال باديو ، وهو الآن فى منحته يخرط فيه أروع التماثيل التى طبقت شهرتها الآفاق وجعلته ناراً على علم ، ها هو مكب على نحت قطعة من الحجر يخدشها الحين بعد الحين بآلته الحادة ، إنه هيكل بديع من هياكل الفن ، وهذا تمثال بديع غريب يمثل الهموم وهى تحط على رأس عذراء جميلة فتشتتها بين الحزن والألم ويثقلا رأسها الجميل .

ليس كل ما فى المكان أحجار وتماثيل بل أمامه تحت الضوء الخافى الضعيف جلست فتاة مطرقة هى الموديل الذى ينقل عنه الفنان تمثاله . . . ، ولو أجلت عينيك بين تلك المجموعة الكبيره من التماثيل المتراصة فى أوضاعها المختلفة وتعابيرها المتباينة لرأيت فيها كلها صورة طبق الأصل من هذه الجالسة الشعر الطويل المموج . . . والعينان المعبرتان . . . والفم الجذاب الصغير والوجه الذى تتفجر منه الحياة ، إنها كلها مطبوعة على هذه الدمى حتى إنها لتكاد تختلج نابضة حية ، والأستاذ الكبير يقوم بنحته الصامت وهو يرسل إلى موديله نظرات خاطفة لا يلبث بعدها أن ينكب على عمله الرتيب . . . وتمضى لحظات تتململ بعدها الفتاة ، ثم ترفع عينيها وتحول وجهها متنهدة ثم تسأل :

— ألم تنته بعد يا أستاذ ؟

— كلا بعد يا برونا ، ولكن انظرى . . . أليس لعينيه نفس عينيك ،

ولرأسه نفس شعرك هذا الجميل ، . . . بل ونفس اليدين الصغيرتين ، حتى أكاد أخال أنك قد سكنت فيه . . . وراحت الأخرى تمعن النظر فى التمثال ثم قالت :

— حقاً إنه نسخة طبق الأصل منى . . . ولكن . . . إلى متى سأجلس هكذا أمامك وأنت تنحت لى التماثيل ؟ ! فسأل مندهشاً

— وهل يضيرك يا عزيزتى أن أخلع شيئاً من جمالك على هذه الأحجار فتصير بكل هذا الجمال ؟ ! فرفعت عينيها المؤلمتين وقالت

— إنى أغار . . وكم أغار وأود يوماً لو أحطمها جميعا ، فيبتسم ابتسامة يسيره ويسأل

— وكيف ذلك وهى كلها لك تخليداً لجمالك ؟

— جمالى ؟ ! إنه فقط على أحجارك ، وما أنا إلا أقصوصة من الورق تنقل عنها أصنامك

— كيف تقولين هذا الكلام يا عزيزتى وأنا ما قمت بعمل هذه التماثيل منذ البدء إلا تخليداً وتقديرا لجمالك فأجابت بحدة

— دعك من جمالى ، فأنا لا أساوى أمامك واحداً من هذه التماثيل

— ومن أدراك بذلك ؟ إنك تساوين عندى أشياءً كثيرة لا يمكن حصرها ، ويقترب منها ويأخذ يدها ثم يقبل خدها الناعمة ويسأل بحنو

— ماذا تريدين منى ، أنا على استعداد لتلبية طلباتك وكل ما تريدين فتطرق هنيهة ويترقرق الدمع فى عينيها ثم ترفع وجهها وتنظر إليه بعينيها الحلوتين قائلة :

— لا أنكر إنك قد حفرت لى الكثير من التماثيل . . . ولكن . . . أنا قد حفرت لك أكثر ، فيسأل مندهشاً

لى أنا ؟ ! أين وكيف ؟ ! فأجابت بحزن

ـ نعم لك . . ولكنك لا تعرف لأنك لا تراها ، بل تأبى أن تراها إنها ليست مثل تماثيلك من حجر لا يحس ، ولكنها تماثيل من لحم ودم ، وفى أطهر مكان خلقه الله ينبض فى جوف الإنسان ، . . . وحينئذ يبتسم ساخراً وقد تبلجت أمامه الفكرة فيقول

ـ أتقصدين أنك تحبينى ؟ ؟ ! فلم تجب وظلت فى إطراقها الحزين فيضحك ويقول

ـ الحب . . . ما أصغرك يا فتاتى على هذا الحب ، إنك لا تفهمين معنى الحب هذا لأنك مازلت طفلة فتحكمين على مشاعرك . . .

ـ كلا كلا لم أعد طفلة لأنى أحبك بل وأعبدك وخيالك لا يفارقنى آناء الليل وأطراف النهار ، إنى أكاد أجن وأنت لاتشعر إنى أكاد احترق وأنت لا تهتم وكل ما تراه هو تماثيلك الصماء المتحجرة .

ـ صبراً يا فتاتى صبراً فمن ادراك بكل هذا الكلام ؟ . . أؤكد لك إنك صغيرة على هذه الأشياء وستأتى الايام وتعلمين إنى كنت على صواب ، انظرى . . إن أمامى مجداً أرمقه ، وعندما أبلغ القمة وأدركه ستكونين قد اكتملت واستطعت الحكم على عواطفك . . . وهنا . . . سأمد يدى وأصعد بك القمة فلم تتعجلين ذلك اليوم الذى يخيل إلى أنه قريب ؟ ! . . جفف دمعك . . . واسعدينى بابتسامة تشرق من ثغرك . . . .

* * *

ـ هاللو برونا ، أين كنت طيلة اليومين السابقين ؟

ـ كنت فى زيارة أمى بالقرية كما تعلم

ـ لقد كانت زيارتك لها فى العادة قصيرة فلم استغرقت هذه المرة طويلا ؟

ـ حدث أمر هام

ـ خيراً . . ما هو ؟

خبر لا يهمك فى كثير أو قليل على أى حال

ـ كيف تقولين ذلك إنه يهمنى أن أعلم عنك كل صغيرة وكبيرة

ـ حسناً إذن . . . طرق دارنا من يطلب يدى

ـ يدك أنت !

ـ ولم لا ؟

ـ ولكنك ما زلت صغيرة . . ! !

ـ ربما ، ولكن والدتى وافقت وستجرى فى القريب مراسيم الخطوبة والزواج

ـ أحقاً . . . هذا عجيب لم أكن أظن أن الأمر يتم بمثل هذه السرعة

وحينئذ يشعر بشىء من الأسف والندم ، ويمسك بيدها سائلا

ـ ولكن . . . لم تتعجلين هكذا ؟

ـ إن الأمر ليس بيدى بل بيد والدتى

ـ وهل وافقت أنت على هذا الزواج ؟

ـ بالطبع وبخاصة لمثل هذا الشاب الجميل . . .

فيغرق فى تفكير حزين طويل . . . ستفارقه هذه التى ملأت حياته واعانته فى فنه ونفخت من روحها فى روحه . . . . . ولكن اليست هى تريد ذلك ؟ فليكن ، إن امامه طريقا لم يقطعه بعد وبعده سيفكر فى الزواج . . . وأخيراً يرفع رأسه قائلا :

ـ حسنا هذه أخبار سارة . . . . . وأتمنى لك حياة سعيدة ، فتقبل تهنئته باطراقة بائسه وهى تلعب بأصابعها فى جريدة موضوعه على مقعد بجوارها ثم لا تلبث أن تقع عيناها فيها على شىء هام ، وترفع الجريدة بين يديها وتنظر إلى صورة فيها بحده ثم توجه حديثها إلى بادليو المطرق وتسأل

— أهذه صورتك يابادليو ؟ فيومىء إيجابا بينما تتابع هى التطلع فى الصحيفة وتقرأ — صورة المثال العظيم بادليو الذى وضع تمثال النائمة وفاز بميدالية الشرف الكبرى واحتفظ المعهد الفنى بتمثاله كتحفة خالدة ، وأخيراً تبتسم وتقول .

— أهنئك يا أستاذ ألا تذكر كيف وضعنا ذلك التمثال ، وكيف كان عمله سهلا جميلا ، ... فأومأ باقتضاب وهو يشعر فى قراره بهم ثقيل ، بينما استلت هى قائلة .

— ها أنت تصد بخطوات سريعة إلى المجد الذى تبغيه وأنا أهنئك كما هنأتنى الآن ... ، وفجأة ... ينظر إليها متبرما ويقول .

— برونا بربك إذهبى الآن واتركينى ، أريد أن أخلو إلى نفسى ، إذهبى وعودى فى أى وقت آخر وستجدينى فى انتظارك ...

إنه قد وثب وثبة واسعة فوق سلم المجد ، وكان عليه أن يسر بهذه النتيجة التى كان يجاهد من أجلها كل هذه السنين ، ولكن شيء فى نفسه يبكى ، ودمع حبيس يتدافع خلف مقلتيه ، وروحه حائرة حزينة ... فهل أحزنه فراقها وذهابها ؟ ... وهل كان يحبها ؟ لقد كان يظن أنه يحب الفن الذى كرس له حياته ... ، ولكنه الآن بدأ يجادل نفسه فى هذه الحقيقة ... هل أحبها أم أحب تماثيله ؟

وقام إلى منحته يتأمل التمثال الأخير الذى لم يتمه بعد والذى كان يدعوه غيوم ، وأمسك بأزميله وراح ينقر الحجر الصلب فتتناثر شظاياه على الأرض ، وهو يصوب عينيه الحين بعد الحين إلى المقعد الشاغر الذى كانت تحتله برونا من قبل يستوحيه ويستلهمه .

وأخيراً وقبل أن يضرب بياض النهار كان قد انتهى من تمثاله فأسقط أدواته إلى الأرض واستلقى على مقعد خشبى وراح فى سبات عميق .

* * *

تمضى الأيام واسم بادليو يزداد لمعانا فقد فاز تمثاله غيوم فى مسابقة النحاتين بالجائزة الأولى ، مما جعل الصحف تتسابق على ذكر حركاته وسكناته وبدأ يشعر بعض السعادة فى غمرة النجاح والشهرة والمجد العريضين ، ولكن ... الأيام تمضى ... وقد عرف الآن بالمثال العظيم ... ثم تهدأ العاصفة التى قامت حوله ، ويبدأ يفيق من نشوة الإنتصار ... نال كل ماتمناه ولكنه كان دائما يشعر بالنقص والعجز وكان هذا الشعور يستبيد به كلما إستسلم للوحدة أو العزلة ، ولكن الآن عليه أن يقدم تماثيل جديدة تمثل تقدمه الفنى واضطراد عبقريته المتفوقة ... ، فيدخل منحته وبه رغبة إلى العمل ولكن ما تكاد عيناه تقع على مجموعته من التماثيل المنحوتة حتى يرفع يديه إلى وجهه يحجب بهما عينيه ... ، ويصرخ من أعماقه برونا ... وتعود به الذكريات ... بل يكاد يراها جالسة ... شعرها الطويل المهدل ... العينين المعبرتين ... الفم الجذاب الصغير والوجه الذى تتفجر منه الحياة ... إنها ذهبت ... ذهبت ولن تعود وتهمس كلماتها فى أذنه ... إنك تصعد إلى المجد بخطوات سريعة أهنئك ... أهنئك .

وأخيراً يرفع يديه عن عينيه ويتأمل تماثيله ... فهذا هاضاحكة ... وذاك لها باكية وآخرلها سعيدة ... ، وتماثيل لكل حالة خالجاتها فيقف بينها هلعا ... يحاول عبثا ان يحمى منها نفسه وروحه المعذبة ... لقد استطاع أن يحتفظ بجسد فتاة أحبها ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بروحها المرحة الجميلة التى كانت تملأ حياته هناء ، وراح يتحسس التماثيل الصلبة الرطبة ... وفجأة يحجب وجهه بيديه عنها صارخا رباه إنها أحجار لا حياة فيها فقدت من أجلها إمرأة كلها حياة وشباب ... وتفيض به كوامنه وهو مع كومة من الذكريات فيبكى وينادى برونا ... برونا ... لم ذهبت ؟ ... أمن أجل المجد الذى كنت أرجوه ... خذى كل مجدى ... بل كل ما أملك وما أحوى وعودى إلى وردى الحياة إلى كل هذه التماثيل التى تحبك ...

وفى نوبة من الجنون ... جنون الحب الذى يبرح بالقلوب الفنانة الرقيقة فيمزقها ... قام وسافر إلى قريتها وهناك قرب دارها وقف يتأمل منزلها بين رقاع من الخضرة والحياه والزرقة الصافية ، ثم يقترب وهو يشعر أن قلبه يكاد يسبقه إليها .. ولكن الدار كانت ساكنة وكل ما فيها هادىء واقترب من طفل صغير يلهو وسأل :

— كيف حالك يابنى ؟ فأجاب الصغير

— بخير

— أين برونا ؟ ... هل هى موجودة بالداخل ؟ فأجاب الصغير

— برونا !!... لا .. لقد رحلت إلى تاكى معزوجها ... شعر بالأرض تميد تحت قدميه والسماء قد أغلقت فى وجهه وسار مرتداً وقد أثقله ألم فظيع ، ألم فنان فقد فنه ... وحياته ... وأمله .

ما أشق الطريق إلى المجد وما أشق السلوى على قلب يحب

obeikandl.com

نفرتيتي
(الفاتنة الحزينة)

تزوجت من أخيها وصارت ملكة على مصر . . . ولما فرق بينهما الموت أصبحت أشقى إمرأة فى العالم القديم :

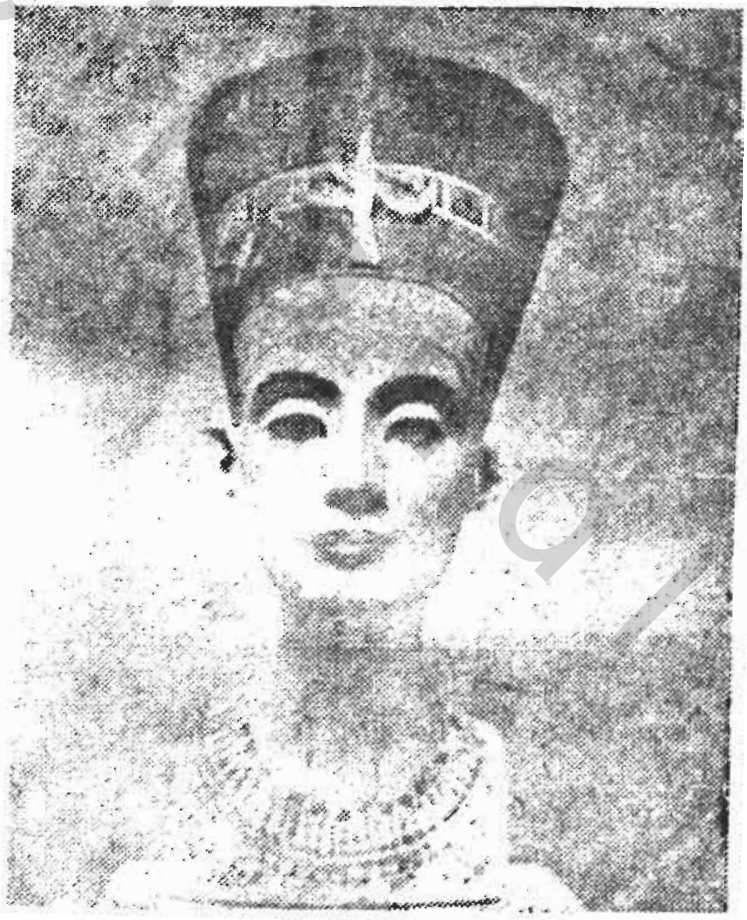

فى ربيع عام ١٩١٣ إنحنى البروفيسير لدويج بوكاردت المنقب الألمانى شهير تحت وهج الشمس الملتهب، وخلل أصابعه حبات الرمال الفضية اللامعة ، يظهر للنور تحفة ثمينة نادرة لم يعرف لها مثيلا فى التاريخ القديم .

بين أطلال مدينة إخناتون المقدسة المعروفة الآن بتل العمارنة، على الشاطىء الشرقى لنهر النيل ، وعلى مبعدة ١٩٠ ميلا جنوبى القاهرة ، عثر بوكاردت على

تمثال حجرى ملون لملكة مصر نفرتيتى ، بالغ الروعة والأتقان ، ظل مدفونا ما ينوف على ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، وكما قال عنه بوكاردت أنه أجمل ما لمست يداه طول حياة .

ولم تبلغ شهرة جمال تاريخى قط مثل هذا الإستحقاق التام الذى للملكة الحزينة . والأسم نفرتيتى معناه (الجميلة قادمة) ، لقب كان من الممكن أن تتناول حقيقته الظنون ، لو لم يقم المثال البارع بالتدليل على صحته .

تلك الملامح المنحوتة لأمرأة فاتنة تطوى معنى عبقرى يعبر عن لمحة حزينة تفيض بها نظراتها المستعطفة ، وأظهرتها براعة التصوير مدهشة لاتقارن .

وحياة نفرتيتى الخاصة تعتبر من أعظم مآسى التاريخ .

كانت نفرتيتى فتاة رشيقة حيية ، ولم تكد تبلغ الثامنة من عمرها ، حتى عزم والداها المتربعان على عرش مصر تزويجها من أخيها ووارث العرش الذى كان فى ذلك الوقت صبياً فى الحادية عشر من عمره ، وقد كانت تلك الرابطة الزوجية بين الأخ والأخت مألوفة فى ذلك العهد القديم .

واحتفل بقران الطفلين البريئين ، قبل وفاة والدهما المحارب العظيم أمنحتب الثالث الذى خلف العرش وهو على قمة النجاح والنصر ، إلى صبى هزيل مريض وإن كان متفوقا فى علم اللاهوت وفى معرفته التامة بطبائع أخته الصغيرة .

غرام حار

كان إحتياج الأمر إلى إيد قوية للقبض على صولجانات الحكم فى الأمبراطورية المترامية الأطراف ، ينغص أحياناً حياة الصغيرين ، ومرت الأيام ، وكبر الطفلان ، وأخذ حب كل منهما للآخر يزداد حرارة ، حتى أصارته هيبة الملك إلى إيمان ... ولأول مرة فى تاريخ العالم القديم نجد ملكة إحتلت نفس المكانة التى للملك .

سرعان ما ترعرعت نفرتيتى ، وأصبحت ذات جمال عظيم وراحت تبث فى زوجها حاجة البلاد إلى إصلاح دينى ، لما قاسته البلاد من جور كهنة الآله امون الاقوياء منذ اكثر من أربع آلاف عام .

وكانت الديانة الجديده هى عبادة الآله القوى آتون (قرص الشمس) ونشر الحب والسلام فى جميع أرجاء الأرض .

وباشر الفرعون الشاب وأخته طقوس دينه الجديد فى الخفاء ، متحاشيا عادة تسجيل الإنتصارات الحربية ، التى كانت تحفر على حوائط المعابد والقبور ، والتى كان يرسم فيها فرعون فى أوج جماله وابهته ، مع أسراه وأسلابه ، وطلب أن تكون لوحاته صورا صادقة من حياته فيبين المثالون مشاهد للعائلة وهى تلعب أو تأكل أو تتشمس تحت أشعة الشمس المحيية التى تمثل إلههم الجديد آتون .

الحياة فى الحق

فى السنة السادسة من حكمها ، غير الملك امنحتب الرابع (راحة آمون) أسمه إلى اخناتون التى تعنى (بهاء قرص الشمس) ، ونسب إلى نفسه لقب أنخنمات الذى معناه (الحياة فى الحق) ، وحقر الملك آلهة آبائه واجداده ، التى عبدت منذ أجيال بعيده ، وخضع لتأثير المرأة ، فجرؤ على تصويرها بحجم واحد معه وعلى قدم واحد من المساواه ، مما يعد إثما فى تعاليم الدين القديم واحتقاراً لكهنته الذين عملوا على دراسة دين الملك الجديد بقلوب مغرضه.

أما نفرتيتى فقد جعلها تشجيعها واخلاصها لمعتقدات زوجها مكروهة مرهوبة من المسنين

وتوجد الكثير من اللوحات البارزه مبعثرة فى جميع متاحف العالم، تحمل الدلالة على إخلاصها لزوجها ، وصورت فى إحداها وهى تحتضن زوجها ،

وأخرى وهى تقبله وهو يقود عربته الحربية الصغيرة ، وكثير غيرها عن أسرار حياة الأسرة المالكة الخاصة وكان الأعتقاد المتقدم عن التأثير الطبيعى للحب هو أصل الأصلاح الدينى الإخناتون .

آلهة الفتنة الرشيقة

وانتهى إخناتون إلى إحتضان زوجته علنا ، وأعلن كذلك عن حبه لها فى الكلمات .

إن قلبى سعيد بالملكة ... السيدة الرشيقة الفاتنة ... عظيمة المحبة ... جميلة الخلق والخلق ... التى يسكر صوتها قلب الملك .

ورغب الزوجان الملكيان أن تكون حياتهما مثلا يحتذى به ففرضا تقديس الزواج والقربى .

بعد ميلاد طفلتهم الأولى كانت نفرتيتى فى عامها الخامس عشر ، قررا ترك العاصمة طيبه وبناء مدينة جديدة تزينها المعابد ، تمجيدا لآلههم فابحرا فى النيل لإختيار مكان لمدينتهم ثم بدأ العمل فى الحال ، بتحصينه بالأسوار الحجرية العالية ، وفى بحر عامين قامت مدينة من اللبن بجانب النيل سميت إختاتون أو (مدينة الأفق)

وأقامت نفرتيتى فى سعادة تحوطها الخمائل الجميلة والحدائق الغناء ، التى غرسها لها إخناتون ليرضى نزعة حبها إلى النور والأماكن الرحبة المتسعة ، وحول جدران القاعة الوسطى الكبرى علقت اللوحات الملونة الجميلة ، وكانت حجرة نفرتيتى الخاصة مدهونة باللون السنجابى ، تزين حوائطها أقمشة مطرزة بالوان زاهية .

أما السقف فزين بالرسوم والنقوش وطعم باحجار الفاروز والياقوت والمرمر .

وكان المثال الملكى ينتظر الملكة كل صباح ، ليدرس ويختبر تقاطيعها ، فيرقبها وهى تداعب أطفالها أو تشاهد الراقصات أو تقوم بنزهتها بين النباتات الغريبة فى حديقتها ، حتى تشبع خياله بجمالها ، ووجد نفسه قادراً على أن يعكس تقاطيعها لتخلد على قطعة من الحجر .

ومرت السنون على الزوجين الملكيين وولدلهما ستة أطفال أخر ، كن جميعا من الاناث فخيب ذلك أملها فى أن يكون لهما وريثا للعرش .

فجيعة مبكرة

لم يكن إخناتون قط صحيحا ، وظل دائما يعانى من آلام وأمراض غريبة ، حتى إنهارت صحته تماما تحت ضغط إيمانه الأعمى وإندفاعه بعقيدته الجديدة ، وأصبحت رسومه قريبة من الكاريكاتور ... جمجمه مستديرة غير متقنة ، وفك مستطيل وعظام بارزة نحيلة ، ومعدة منتفخة وملامح بشعة مخيفة ، وعانى من التشنج العصبى سنوات عديدة ، ومع كل هذا ظلت نفرتيتى نبعا يفيض عليه رقة وحنانا .

وأخيراً وقبل بلوغه الثامنة والعشرين ، مات إخناتون تاركا ارملته فى زهرة شبابها وفتنتها . . . .

لم تفق نفرتيتى قط من صدمتها ، وقصت جدائل شعرها الثمينة وألقتها على جثة زوجها ولبس البلاط ملابس الحداد ، وغطى تمثال الملكة الذى كان يقوم بصنعه المثال حيث ظل فى مكانه . . .

واسترد كهنة الديانة القديمة قوتهم ، وردوا العاصمة إلى طيبة ، وتركت التحفة النفيسة لتحفظ فى الثرى خمسة وثلاثون قرنا ، حتى أزالت أصابع بوكاردت الاتربة من فوق ملامحه الفاتنة ، وظهرت الوانه المنسجمة تلمع كأنها لونت بالأمس فقط ... لم يعرف المكان الذى عاشت فيه نفرتيتى بعد وفاة زوجها وظلت خاتمة مأساتها سرا يطويه التاريخ .

وكشف عن الكثير من اللوحات البارزة ، فى أطلال (مدينة الأفق) تحمل جميعها الشهادة لجمالها ، الذى طبقت شهرته الآفاق ولكن ما زال تمثالها الحجرى ، تحفة تأخذ بلب كل من رآها إذ يخيل للناظر إليه أنه أمام نفس حية تكاد تلفظ وتتكلم وتعيش .

تأثير عجيب

لهذا التمثال تأثير خارق عجيب ، لازم كل من رآه منذ إكتشافه ، وقد عرف بوكاردت قيمة كشفه منذ الوهلة الأولى ، فعمد إلى تهريبه إلى برلين ، دون أن يرجع إلى الحكومة المصرية .

ولشهور عديدة ، منعت السلطات الألمانية تصوير التمثال ، خوفا من مطالبة المصريين به ، ولكن براعة المثال المتفوقة وجمالها الأخاذ الذى لم يوجد مثلهما فى الفن القديم ، كان له صوت داو فى كل فن من فنون أوربا ، وتأثير بعيد فى دراسات العالم التاريخية .

وفى عام ١٩٢٧ أفتتن أدلف هتلر بالتمثال ، وكان يقضى الساعات وهو يدور حول قاعدته ، فى قسم المصريات بمتحف برلين يدرس ويختبر تقاطيعه الجذابة ، ولكن ما لبث أن قطع عليه هويته خطاب من الحكومة المصرية يطالب فيه بعودة التمثال ، وقال هتلر أن نفرتيتى قد إحتلت فى نفسه مكانة الزوجة ، وعلى ذلك لن يستطيع إرسالها .

فى المنفى

فى عام ١٩٤٦ كانت فصيلة من الجيش الأمريكى ، تفتش منجم ملح مهمل فى ثيرنج ، فعثر أحد الجنود على قفص مكسو بالخيش ، فى حجرة منعزلة فنزع عنه الخيش ، وبحث ما به من قش ، فعثرت يده بالتمثال الفريد ، الذى بلغت حياته ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، وسرعان ما أبرق وزير خارجية مصر

بتعليماته إلى عمر وباشا وزير مصر بلندن كى يسأل الحكومة البريطانية معونتها فى الحصول على التمثال ، كما قام الوزير المفوض المصرى بوشنطن ، ببحث المسألة مع السلطات الأمريكية بحثا مستفيضا ، وأبانت السلطات الأمريكية ، أنها لا تستطيع إعادة التمثال لأن فقده لم يكن بسبب حربى ، وتركت الأمر إلى أن تقوم حكومة ألمانية ، يحق لها أن تبت فى هذا الموضوع .

وجدد المصريون طلبهم ، وقدموه إلى الدكتور ادنيرز فيدرال ممثل الحكومة الألمانية .....

وحفظ التمثال فى قسم الفنون الجميلة والسجلات ، بمتحف الولايات الجديدة فى هيزن ، ووضعت عليه حراسة دائمة من البوليس الألمانى ، والقوات الأمريكية ، وهكذا يعيش تمثال نفرتيتى الآن فى المنفى متسببا فى مشكلة دولية ، ولكنها تستقبل كل أسبوع ما يقرب من خمسة آلاف نسمة ، جذبتهم فتنة إمرة إستغرقت الأحقاب الماضية .

عبر الرمل يتراءى أمام فتنة المرأة الجميلة

الروح الخالدة

لم يكد يدق جرس السفينة ، معلنا وصولنا إلى ميدان كاليه، حتى وثب كل منا إلى ظهر الباخرة ، يرقب الميناء وهو يقترب رويدا رويدا ، وهرعت إلى حجرتى أستبدل حلتى البيضاء ، بغيرها نظيفة ووقفت أرقب خيالى فى المرآة ، فطالعتنى قامة مديدة وسحنة خمرية وشعر أسود فاحم وعينان عسليتان ، وشعرت بالارتياح والغبطة عندما وقعت عيناى على الشريطين الأزرقين على كتفى ، اللذان يعينان منصبى كضابط بحرى ووضعت يدى أتحسس رزمة الأوراق المالية ، التى ادخرتها من مرتبى ، ولا تحسبن إن البحار محب للادخار ، ولكنه يدخر فى رحلته البحرية ما يشبع شوقه إلى البر بكل متعة وملاذة . . . وبعدها إرتقيت السلم إلى ظهر السفينة الذى بدأ يزدحم بالبحارة والركاب ، ومررت فى طريقى بغرفة الإستعلامات وكان يعمل بها صديق قديم ، وجدته واقفا خلف حاجزها ، وقد أطل من عينيه شوق غريب ، وهو ينظر إلى الميناء والمدينة القريبة فسألته باسما :

— ماذا وراءك يا أبا الحصين . . . هل سترسو هنا (ست الحسن) طويلا ؟

— نعم فقد أبلغنى القبطان أنها قد تظل هنا أسبوعا فى انتظار شحنة سنقوم بنقلها إلى دوفر .

— حسنا . . . إذن سيمكننا أن نقضى هنا وقتا طيبا ؟؟

— ولم لا . . . ألم نصل إلى البر الذى نحن إليه !!؟

وكانت السلم قد أدلت وازدحم الركاب والبحارة على رأسها ، فالتفت إلى صاحبى مودعا .

— حظاً سعيداً يا أبا الحصين

— حظاً سعيداً يا كابتن حسون

وكاليه ميناء كبير ، تملؤه الميادين الفسيحة والمبانى الفخمة والشوارع المنسقة ، راعتنى نظافتها وفخامتها وتلألؤ أنوارها ، فرحت أتنقل فيها من مكان إلى مكان ، وعبت من هوائها الكثير من البيد المعتق حتى كلت قدماى ، وبدأت أحس بدوار خفيف فقصدت حديقة هادئة ، ثم جلست على أحد مقاعدها أقلب صحيفة فى يدى ، وبعد هنيهة تقدمت منى فتاة رشيقة جميلة كـكل فرنسية وسألت :

— هل تسمح لى بأن أشاركك هذا المقعد ؟ فأجبت :

— بكل سرور . . . فجلست على الأريكة بجوارى بينما استأنفت تصفح الجريدة التى بيدى ، واضطجعت زميلتى على ظهر الأريكة فى وضع مريح ، ورفعت عينيها إلى السماء ترقب الغيوم المتلاحمه ، وبعد لحظة بدأت تغنى ، وفتحت انا اذنى التقط الكلمات الحالمة التى تغنى بها .

اذكر يوم قابلته بين الأشجار . . وكانت الأشجار لنا ستار . . . وأرعدت السماء وأبرقت . . فهذه سماء فرنسا المتقلبـــة وراحت تنهمل الامطار الباردة . . فكنت أرتعد كالطائر المبتل . . . وفجأة رأيته يتبعنى ، وهو لا يحفل بالمطر المنهمر . . . وهتف من خلفى ياملاكى لم تنتفضين . . . ووقفت أنظر إليه وأسأله عما يريد ، ولـكن نظرة من عينيه فتحت أمامى الطريق . . . . إنى أذكر دفء شفتيه وهما يمسحان شفتى . . . وأذكر قوة ذراعيه وهما يضمانى إليه . . . مازلت أذكر وسأذكر يوم لقـــاه بين الأشجار . . . .

جعلنى صوتها الهادىء الحزين ، أحلق فى عوالم بعيدة عوالم لم أدركها من قبل ، ونظرت إليها وهى ما زالت تتأمل الغيوم وقلت :

— عفوا يا آنسه أن اقطع عليك تأملك العزيز ، ولـكنى أود أن أؤكد لك أن صوتك أشجى صوت طرق اذنى ، وأغنيتك أرق أغنية سمعتها فى حياتى ، فابتسمت سائلة :

ـ هل أعجبتك حقا يا سيدى البحار ؟

ـ كيف لا .... إنى لأود أن أسمعها كل دقيقة فى حياتى حتى ادرك ذلك السمو الذى بلغته مع غنائك .

ـ أشكرك .... يبدو لى انك رقيق العاطفة !!...

ـ جدا جدا يا آنسة... فانى من أبناء الشرق العامر بالعاطفة والجمال .

ـ إذن فأنت شرقى .... من أى بلد من بلاد الشرق ؟

ـ إنى من مصر البلد العريق فى الحضارة والتقدم ....

كان البدر قد بزغ من بين الغموم ، ورأيتها تتأمل وجهى ثم اشرقت ابتسامة على شفتيها وهمست :

ـ كم هو جميل .... هذا اللون الخمرى الذى يكسو وجهك .. فاجبت .

ـ اما انت فلا أعرف هل أتحدث عن شعرك الذهبى ... أم عن عينيك الساحرتين أم شفتيك المغريتين ... أم عن الجاذبية الصارخة فى كل ثنية فيك ؟؟! ، وراحت تحدجنى بعينيها وشعرت من نظرتها أن سعيرا يتلظى فىّ وفجأة وجدتها تطوقنى بذراعيها وتضمنى إليها بشدة وذقت شهد شفتيها وهو ينسكب فى فمى وأحسست بروحى تسمو مع تلك الأغنية التى مازال صداها يرن فى أذنى ....

وعندما أفقت وجدتنى أهبط فجأة من أعالى السماوات إلى الأرض ، أما هى فقد رفعت وجهها من جديد إلى السماء ، حيث كان القمر بين طيات الغيوم المتزاحمة ، وراحت فى سبات عميق ،وترامت إلى فى السكون صوت أنغام موسيقى التانجو الهادئة ، وهى تصدر من مرقص قريب ، ولمست ذراع صاحبتى سائلا :

ـ ألا ترغبين فى بعض الشراب ؟ ....وإنى لأود لو اسعدتنى برقصة

معك فى هذا المرقص القريب ! ! . فاطرقت مفكرة ولم تلبث أن قامت ، وهى تتأبط ذراعى ، وسرنا إلى المرقص ، وأنا نشوان بحلى الجميل حتى دخلنا تحت الأضواء الملونة المتلألئة ورحت اتأمل صاحبتى فكانت رائعة الجمال جذابة إلى منتهى الجاذبية فالصقت صدرى بصدرها الناهد وخلت إنى أرتقى من عالم الأرض إلى عوالم أخرى بعيده .

وانتهت السهرة ، عندما أعلنت الساعة انتصاف الليل ، فحاولت أن أضرب معها ميعادا لمقابلتها فى اليوم التالى ، ولكنها إعتذرت لعدم إستطاعتها، فطلبت أن أوصلها إلى منزلها فاكان منها إلا أن وضعت ذراعها فى ذراعى وسرنا فى سكون الليل ... كنت أتوقع أن تحادثنى ولكنها كانت شاردة فسألتها

— هلا حدثتنى عن نفسك وعن عائلتك ؟ فسألت

— وماذا يهمك من امر عائلتى . . . قلت

— لا شىء . . . . ولكن هلا حدثتنى بأى شىء نقطع به السكون ... حدثينى مثلا عن نفسك كما وإنى للآن لم أتشرف بمعرفة إسمك ؟ فاجابت

— أما من جهة إسمى فهو جوزفين ملتون ، وسأحدثك عن جزء هام من ماضى

— تفضلى فهذا ما أود سماعه ، قالت

— تبدأ قصتى بالجامعة ، عندماكنت طالبة بقسم الموسيقى ، وكان لى زميل نابغ يدعى فرانسو ، نمت بينى وبينه إلفة لم تلبث أن تطورت إلى حب، وكنت كثيرا ما أجلس إليه وهو يسمعنى انغامه على البيانو ، وكانت أنغامه سحرية تحرك كوامن النفس فكانت عواطف غريبة تتنابى ، هى مزيج من الفرح والبكاء والسعادة والشقاء ، والبهجة والألم كلها تتضارب فى نفسى فى لحظة واحدة ، فاحس كأن بركان على وشك الثورة ، وان فى اعماقى اتونا

يضطرم وكلما وقعت عيناه على كنت أشعر بدوار غريب ، وأخال أن نظراته تحترق أعماقى ، وأخيرا عرفت ضعفى أمامه ، وحبى الجارف له ، وإذ كان يبادلنى حبا بحب ، لم أبخل عليه بأثمن ما تملك فتاة ، ووهبته قلبى ونفسى ، وفجأة أختفى فرانسو فى ظروف غريبة ، فرحت أبحث عنه كل مكان علِّى أجد له أثرا فلم اجد ، وجبت كل أوربا بحثا عنه ، ولكنى لم أجد ما يرشدنى إليه ، وأخيرا رجعت إلى هنا ، وقد امتلأت نفسى يأسا ، وظللت انتظر ، ولكن عبثا ولا زلت اتردد على الحديقة التى كنا بها والتى قابلته فيها أول مرة ، اجتر الذكرى والأمل علّه يعود .

وهنا تنتهى قصتى ياسيدى فقلت

— يالها من قصة مؤثرة وددت لو أستطيع مساعدتك

وكنا نجتاز طريقنا فى الظلام وقد تركنا المدينة الكبيرة وراءنا ... فسألت

— هل منزلك بعيد كل هذا البعد عن المدينة

— نعم فهذا ما أخترته لنفسى ولكنه إقترب كثيرا، أنظر إلى هذا البناء إنه يقع خلفه مباشرة ... فقلت

— حسنا لقد كانت ليلة سعيدة ، ووددت لو تقابلنا مرة ثانية ، فقالت

— هذا مستحيل

وبزغ القمر من خلف الغيوم ، فرأيت حولى فجأة عددا كبيرا من القبور المتراصة ، كما بدا لى وجهها الجميل يخطف فى ضوء القمر وسألت

— عجبا لم إخترت منزلك فى هذا الطريق المقبض؟ فقالت

— إنها الحياة يا حبيبى وأنا أسير فى الطريق الذى رسمته الأقدار لى ، وقالت وهى تقترب منى وتلتصق بى

— وداعا أيها المحبوب فاننا سوف لا نلتقى مرة أخرى

فضمتها إلى صدرى وذقت حلاوة شفتيها ، وهى تنسكب فى فمى ، وأبتدأت روحى ترقى ذلك السلم المجهول إلى عوالم من السعادة والنشوة ، وفجأة اختلج جسدها وصار فى برودة الثلج فدفعتها عنى بلطف سائلا

ـ ماذا أصابك يا عزيزتى ... فقالت

.. إنه البرد القاتل ... هلا وضعت رداءك على كتفى ؟ ؟ ! !

وفى الحال خلعت سترتى والقيتها على كتفيها وسألت

ـ كيف حالك الآن ؟

وكان القمر قد إحتجب بين طيات الغيوم وسمعتها تصرخ قائلة مازلت أشعر بالبرد . . . اواه أنى أختنق انقذنى

ومددت يدى اتحسسها فى الظلام وخطوت هنا وهناك على أعثر عليها وراعنى ما حل بها فرحت أهتف جوزى ... جوزى ولكن لم يكن هناك سوى السكون المطبق وصوتى وهو يتردد فى الحنايا الساكنة وأخيرا وجدتنى اصرخ بكل قواى

جوزى ... جوزى أين أنت ، ولكن لم يكن هناك سوى السكون وشعرت بالخوف يجتاح نفسى وسرت فى جسدى رعدة باردة فرحت أجوس خلال المقبرة المظلمة وانا اناديها وبغتة سقطت فلم أشعر بما حولى.

وأفقت فى الصباح وكان كل ما حولى ساكنا وأحسست بألم شديد فى ساقى فلم استطع أن أعرف ما حدث لى ولا حتى السبب فى مجيئى إلى هذا المكان ، ولا بأى جزء من أجزاء الأرض أكون ، ووقفت زمنا وأنا أقلب ذاكرتى حتى تبلجت لى حوادث الليلة الماضية وتذكرت جوزى التى فقدتها وهى فى أشد الحاجة إلى معونتى وقمت ابحث عنها فى المقبرة الواسعة ولكن عبثا ، فهل يمكن أن تكون ذهبت إلى منزلها خلف البناء التى اشارت إليه بالأمس ؟ وقصدت البناية وراعنى أن أجدها كنيسة المقبرة وأن المكان كله

مدينة للاموات ، إذن أين يكون منزلها . . . وهل يمكن أن يسكن القبور أحياء ؟ . . . ولكنى قصدت المقبرة الكبيرة التى تقع خلف الكنيسة وفى نفس الاتجاه الذى أشارت إليه جوزى ، كان باب المقبره مواربا فدفعته لينفتح بصوت رهيب وولجت مدخلا مظلما قادنى إلى ردهة منيرة يقوم فى وسطها قبر رخامى . . . ولم أكد أرفع عينى الى شاهده حتى قفزت من مكانى من هول المفاجأة فقد كانت سترتى البحرية بخطوطها الزرقاء معلقة عليه .. فما الذى أتى بها إلى هذا المكان ؟ !! وقصدت إلى السترة حيث رفعتها من مكانها لارتديها وفجأه وقعت عيناى على ما سمرنى فى مكانى ... كان اسم جوزفين ملتون مكتوبا على الشاهد فلم أصدق عينى وتقدمت احملق فيه ولكنى وجدته صحيحا وأن فتاة تسكن هذا القبر تحمل نفس الاسم الذى أعطتنيه الفتاة وقرأت .

جوزفين ملتون تبلغ من العمر ٢٤ عاما

توفيت غرقا فى نهر السين عام ١٩٤٥

ومعنى ذلك أن الفتاة التى كنت بالأمس أراقصها ماتت منذ عامين . . . إن أحدا لم يصدق قصتى ولكنى ما زلت أجلس فى نفس الحديقة وعلى نفس المقعد فاسمع همس الأغنية التى ما زال صداها يرن فى أذنى .

قد تذبل شجرة الحب ويعتريها الجفاف ، ولكنها فى الربيع لا تلبث أن تزدهر اذ يرويها الحنين بذراه ، وترفع عنها الذكريات السعيده لفحات الهجير .

المدمرون

٢٠ / ٦ / ٤٨

قمت اليوم بعمل رائع ، فقد قمت بوضع مادة الجلنجنايت الناسفة فى مدخل بناية شركة الصناعات المتحدة ، ولم أكد أبتعد قليلا حتى دوى الصوت المدمر ، ورأيت البناية تتطاير فى الهواء والنار تشتعل فى إشلائها .. إنه منظر رائع أن ترى صرحا من صروح الاستعمار ينهار ويتلاشى ، إنها قوة الشعب التى تكتسح أمامها كل قوة .

٣٠ / ٦ / ٤٨

كلفت اليوم بعمل آخر إذ قابلنى الرئيس ، وقدم إلى قنبلتين يدويتين وطلب أن ألقيهما على سيارة حمدان باشا ذلك النائب الذى تجرأ على حزبنا وراح يندد باعماله فى البرلمان .

١ / ٧ / ٤٨

قرأت اليوم فى الصحف نعى حمدان باشا الذى قتل عقب إلقاء قنبلتين على سيارته وراحت الصحف تطنطن فى ذكر الحادث الفظيع الذى أودى بحياة رجل من رجال الأمه العاملين مطالبه بالضرب على أيدى المجرمين . . ولكن سحقا لهم إننا نطهر العالم من هؤلاء الطفيليين وسأظل أمارس عملى إلى النهاية .

٣ / ٨ / ٤٨

طلب الرئيس مقابلتى اليوم ولم أكد ألج باب دار الحزب حتى وجدتها غاصة بالأعضاء فالتفوا حولى فى حلقه محيين ، وكنت أسمع كلمات الاعجاب والتقدير وهى تتطاير من حولى فتملأنى فخراً وفجأة ارتفع صوت يقول .. ها قد جاء البطل ، وتقدم إلى الرئيس يهز يدى بحرارة قائلا مرحبا بالبطل

لقد أتيت عملا جليلا ونفذت كل ما طلب منك بأمانه ، فهكذا تكون البطوله والوفاء ، وانه ليشرفنى يا زملائى أن أقلد زميلنا هذا وسام البطولة من الدرجة الأولى . . وشعرت وهو يعلق فى صدرى الوسام بأنى قد سموت على جميع خلائق الأرض وبلغت قمة المجد ، وارتفع التصفيق من حولى مؤيدا لمشاعرى .

٤ / ٨ / ٤٨

لست أدرى لم تجرى الأحداث هكذا سريعا فقد قبض اليوم على زميلين وهما يحاولان تدمير المجلس السياسى فسيقا إلى السجن .

٢٩ / ٨ / ٤٨

ما زال الحزب يباشر أغراضه لقلب نظام الحكم والسير به إلى تحقيق الحرية والمساواه التى هى شعار الحزب ، فحشد حوله هذا الجمع من الأعضاء المخلصين ، وقد تم بالأمس تدمير ملهى فيجال الذى كان يجمع طائفة من الأثرياء المترفين ، راحوا جميعا أشلاء تحت الأنقاض . . وهكذا يعمل الحزب عمله فى تطهير المجتمع من هذه الطائفة الخاملة .

٣١ / ٨ / ٤٨

كلفنى الرئيس أمس بمهمة خطيرة ، وهى قتل سمير باشا زعيم حزب الصناع لأنه يناوئ الحزب ويحاول أن يحد من سلطانه، .. ولولا إنى أقدر هذا الزعيم وأكن له الكثير من الاحترام والتقدير لكانت مهمتى سهلة . . ولم ألبث أن رأيته قادما فى مشيته هادئا مطمئنا ، وقد إستغرق فى تفكير عميق وأمسكت بمسدسى مترددا ، . . كم أحب هذا الرجل . . إنه الرجل المثالى الذى أقدره ، وأعجب باعماله الجليلة فى خدمة الصناع .. ولكن أليست هذه

أوامر الحزب ، وقد حكم عليه بالموت ، فهو إذن يستحقه . . ودوت الطلقات الثلاثة وهوى الرجل متأوها إلى الأرض .

٤٨ / ٩ / ٩

يا الهى لست أدرى إلى متى سيظل هذا ؟ ، وكيف استبحنا قتل الأرواح والأنفس ؟ . . إننى كلما مررت بشوارع المدينه تروعنى الأكوام من الأبنية المدمرة وصورة الخراب الشاملة التى شوهت جمالها ، فاشعر بقسوة هذه الأيدى العابثة التى تطعن هذا البلد المسكين بطعنات متوالية ، وهى الآن صرعى بكل حضارتها ورفاهيتها .

٤٨ / ٩ / ٢٠

كلفنى الرئيس بمهمة خطيرة ، وهى تدمير جسر النهر الجديد ، وقد وقفت مدة اراجع نفسى ، وأنا أود من كل قلبى لو أتخلص من هذه المهمة البغيضة ، إذ أن هذا الجسر أعز مكان لدى ولى به الكثير من الذكريات العزيزة ، وخطر لى أن أرفض هذه المهمة ولكن هاتفا فى نفسى منعنى ، وتسلمت الكمية الكبيرة من مادة الجلنجنايت ووقفت فى الردهة أتلقى تشجيع زملائى ، ولكن شيء كان يضطرم فى نفسى .. وتركت الدار الحافلة بالزملاء ووجدت نفسى أخيراً فى العراء ، فى الحديقة المحيطة بدار الحزب ، فوقفت أراجع نفسى فيما أنا مقدم عليه ، ورأيت بعين الخيال الجسر الهائل الجميل وهو يهوى إلى أعماق النهر . . فمن أين إذن أرقب الأخيلة الراقصة التى إعتدت أن أرقبها على صفحة الماء .. وأين أجد أولئك العذارى الراقدات فى أحضان الموج . . وأين الأضواء المتكسرة مع الموج المنساب .. وتراءت لى المدينة وقد تدمر فيها كل شيء جميل ، فاغمضت عينى كى أحجب المنظر المفجع ... منظر حطام مدينة من الأجيال السابقة . . . وفجأة برزت أمامى فكرة عجيبه ، فراحت

عيناى تتصفحان حوائط بناية الحزب العامرة ، وفكرت فيما قد يفعله الجلنجنايت بها ، وأخيراً وجدتنى ألصق المادة المدمرة بالجدار وأشعل الفتيل . . ولم أكد ابتعد حتى دوى إنفجار هائل ، وتطايرت البناية ومعها إشلاء القتلى والضحايا ، ووقفت أرقب هذا المشهد الرائع وأحسست لأول مرة بالبطولة الحقة . .

والآن ليعد السلام لأرضك يا بلدى الحبيب ؛ إذ لم يخلق ابناءك للهدم ولكن للبناء وها انا حطمت المعول الذى كان يهدم فيك .

(كتبت حوادث هذه القصة من الخيال ولا تمت بأية صلة الى أحد من الأحياء)

المؤلف

obeikandl.com

على أبواب الجحيم

١٥ / ٣ / ٤٣

أخطأت أيتها السماء . وها هى جريمتى تنبعث كريهة تجرفى إثرها جرائم ، فقد تمثل لى الشيطان فى جسدها الرائع التكوين ملتفاً بأضواء الفجر الشاحبة . ناهدة الصدر ملتهبة الثغر مهدلة الشعر ، وكأنها ملاك ألقى إلى كى يخفف وحدتى وآلامى . . .

أخذت أرقبها بعين فنان . . . فيالها من لوحة ، وتبدى لى الشيطان فكانت فتنة ، وهناك بين الخير والشر ، بين الله والشيطان . . . وقفت على على صراط دقيق . . .

تبدت لى حياتى الفاشلة بين أفكارى المضطرمة وآمالى المشتعلة ، وهى ترتفع إلى القمة ثم تهوى إلى الحضيض ، ورأسى المثقل وهو يضرب بقدمين ثقيلين فى بيداء الظلمة والهواجس المريرة يبحث عن هناءة فلا يجد إلا أن يفكر فى أحلامه الضائعة ، التى أذرتها الرياح وعصفت بها العواصف . . رباه ها أنا أحصد ما زرعته شوكا ، بقدمين عاريتين فاصرخ إلى سمائك طالبا الرحمة فى حرارة قديس ، وأنا الإنسان الدنيوى الذى بنى بيته على الرمال فادركته العواصف . . .

تبدت لى لوحة من سنى حياتى البالغة واحدا وعشرين عاما مضت ، وقد جللها السواد وخلت من النور الذى يجنح إليه الإنسان فى محنته ، تلك هى الذكريات السعيدة التى تستطيع أن تشرق من أغوار الماضى ، فتبدد الكثير من ظلمات الحاضر . . . ، وحولت وجهى وأنا أشعر بالمرارة تقطر فى أعماق نفسى ، وإذا عيناى تصافحان ذلك الجسد النائم من جديد ، وقد ألقى عليه النوم هدوءه ، وأطلق فيه الكثير من إغرائه السجين وكشفها حر الصيف عارية تماماً .

نعم إنها التفاحة العتيدة تقدمها حواء إلى آدم الشق فيظن فيها سعادته ثم يهجر من أجلها نعيمه ، فهل أتقدم إلى هذه الثمرة الشهية المحرمة ؟ ... أو أفلت تلك السعادة التى كانت تشوقنى دائما ؟ ؟ ! !، وهنا همس ذلك الصوت المتزلف — والآن ماذا يحيرك يا رجل ، ها هى إمراة ناضجة أمامك فلا تتجاهل قبل أن تضيع الفرصة ويستيقظ أهل الدار لعملهم .. إنها السعادة الضائعة التى تنشدها ، ونعيمك المفقود فلا تتركها . . وهتف صوت آخر .

— لا تمسها حول عنها بصرك ونم وانجو من هذا الشر العظيم . . . ، إنك لن تقف أمام ضميرك من أجل إمراة ، فلا تستسلم إنها أفعى ناعمة كلها سم ودنس ، كلها فساد ودمار وفضيحة .

ورأيتنى أحول وجهى وأسحب غطائى فوقه لأحيل بينها وبين عينى راجيا أن ينتشلنى النوم إلى عالمه المغمور ، ولكن كان هذا عبثا وقلبى يخفق بشدة ، وخيالها يملأ مخيلتى ، بل ويسرى فى جسدى وإدراكى ، وعاودنى ذلك الصوت المتزلف من جديد .

— آه انك ترفض هذه الكأس التى تقدم إليك مترعة ... ، انك تجحد بالحب وبكل عاطفة .. ، ولكن خبرنى ما سر موسيقاك الحزينة وأنغامك اليائسه ، وسر نفسك الضجرة ؟؟؟!... إنه القلب الخرب الساكن بين جنبيك ، الذى لا تسمح له حتى بالخفقان ، فما أتعسه بك ... ، أنظر ألا تراها كالفاكهة... ، أليست هذه هى المرأة التى تحن إليها وتعانى من بعدها ؟ ، إنك لم تعد شابا وقد أمت قلبك بين جنبيك فحرمت نفسك أحلى لذة وأهنأ سعادة .

وأخيرا وجدتنى أرفع وجهى من جديد ، وأنظر بعينين محمومتين إلى تلك النائمة وهى تأخذ أنفاسها بانتظام ، وشعرت بأن هناك دافع قوى يدفعنى من مرقدى إليها ورحت أخطو خطواتى المتلصصة لأقف بجوارها محدقا

مترددا ، وأنا أتأمل جمالها الساكن وشفتيها كبرعمه لما تتفتح وحينئذ همس ذلك الهامس .

— القبلة ... ما أحلاها كأسا مسكرة ... تذوق ... تذوق ولا ترفض هذا الشراب ، وكالحالم إنحنيت أقبل تلك الشفاه ... لم أجد فيهما حلاوة أو عسلا ولا خمرا بل كانتا جامدتين ، وهمس رائدى :

— كيف وجدتها ؟

— لا شى .. انه الوهم تسكبه الغريزة فتجعل منه نشوة خيالا . ، وسمعت ضحكات مكبوتة هازئة تقول :

— يا لك من فيلسوف .. ! أهذا كل ما وجدت ؟ إنك شيخ فى صباك وهذا كل ما فى الأمر ... قبلها بشدة فتستيقظ وتبادلك قبلة بقبلة وحينئذ ستعرف سرها ... ها جرب ... أتجبن ؟ .. تقدم وكن شجاعا وإلا ما إستحققت الجنس الذى تنتسب إليه .. فتقدمت أقبلها فى عنف فاذا بالجسد الهادى يهتز وتتحرك عيناه ، وترمشان قليلا ، ثم ما لبثتا أن فتحتا مذعورتين وراحا يحملقان برهة فى شبحى المضطرب ، ثم لم تلبث أن ارتسمت ابتسامة شاحبه فى ثغرها ، راحت تتسع تدريجيا لتملأ كل محياها .. كان هناك أتونا من الشباب المستعر يتأجج فى احشائى ، وأحسست بالشيطان يثور فى أعماقى فهويت إلى مرقدها بأنفاسى المشتعلة ورحت أعصر جسدها الرقيق فى أتون عاطفتى الملتهبة وشعرت بيديها وهما يلفانى ويضمانى .. وغبت لحظات فى نشوة طارئة .. ، وفجأة شعرت بآلاف السياط تنهال على ، وان كل شىء حولى يصرخ ها هو المجرم إمسكوا الأثيم .. فانتفضت فجأة فارا من أحضانها ، وبعينى نظرة القاتل إلى ضحيته يعصرنى الأسف والندم ، ولكنها كانت هادئة والابتسامة ما زالت تتلاعب فى ثغرها ، وهنا هتف صديق القديم .

— سحقا لها عاهرة لا تشعر بالجريمة كما لو كانت اعتادتها من زمن

قديم . .. وويلك أنت أيضا أيها الأثيم انك دنست طهارة عذراء . . وربما كان هذا السكون سكون الفجيعة التى خلفتها بفعلتك الشنعاء .. ألا تشعر بفعلتك وعارك ؟ . . يا نذل نعم نذل بل حيوان بهيمى لا يؤتمن ، وتقدمت اليها مثقلا وبى رغبة شديدة فى البكاء والركوع عند قدميها طالبا الصفح والغفران ، وهمست باسمها فى خجل لم يجاوز حنجرتى وسألتها هل آذيتك ؟ .. فأجابت وقد راعها ما رأت من اضطرابى .

— أوه كلا لا شىء البتة ، هززت رأسى مندهشا باستخفافها ؛ فهل كانت لا عى ما أعنيه ؟ ولكن المؤكد انها تعرف .

كانت الأضواء البيضاء تتراقص فى الحجرة والزرقة تكتسح أمامها الظلمة وأصوات الديكة تتصايح معلنه اقبال النهار ، فلبست ثيابى على عجل وأخذت أعدو فى طريق الى المحطه لألحق بالقطار الذاهب إلى المدينة حيث أستلم عملى فى الساعة السابعة

كنت أشعر بشىء من المرح وكأنى طائر حبيس قد اطلق لأول مرة بعد سجن طويل ، وكل شىء حولى جميل جديد ، فالنسمات الصحوة المنعشة وتلك السماء الزرقاء الرائعة . . والحقول الخضراء المنبسطة، كم من مرة مرت بى هذه المناظر فلم أكن أجد فيها جمالا وما لها تبدلت الآن وتفجرت فيها الفتنة والحياة . .

كان خيالها يلازمنى .. خيال المرأة الأولى فى حياتى وكم من مرة همس فى اذنى ذلك الهامس من جديد .

جرب القبلة .. ثم اشعر بالنشوة تسرى فى اعماقى وتنتشر فى جميع اجزائى فتلهب جسدى وتثير اعصابى .. وما زال ذلك الهاتف يحرض بالفاظه السفيهة ، وحينئذ رحت اغمس نفسى فى العمل المتواصل ، ولكن صورتها ظلت ماثله امامى .. الجسد المرمرى المسجى فى اضواء الفجر الشاحبة . . ، لم استطع ان احول وجهى عنه أو أصم أذنى عن سماع الكلمات الهامسة ..

يا لها من فتاة .. إنها تحبك وترغب فيك حتى انها لم تصرخ أو تمنعك عن نفسها بل ضمتك إلى صدرها ولفتك بين ذراعيها .. لابد وأنك رجل احلامها فلا تجعل الفرصة تفلتك واحيي بها شبابك المائت .. يخمد هذا ليهمس آخر فأن كان الأول أشد الحاحا كان الثانى أشد تقريعا . . ويلك يا شقى كم كنت تفخر بأنك لم تمس إمرأة وها أنت ذا لا ترفض معها أول فرصة مواتية ، والآن وقد تدنست نفسك . . هل ما زلت تفكر فى خطيئتك غير نادما ؟ هيا إبك وصل واطلب من ربك الغفران . .

وهناك وانا اتلظى بين نارين واتقلب فى آتون من الحيرة والندم أغمضت عينى مدمدما .

رباه رحمة بى أنا الشقى الذى طوى عليه الشيطان جناحيه . . ، وفجأة تلوح لى تلك النائمه كحورية من الجنان فاحملق فيها متأملا نهديها البارزين وساقيها المرمريين ، فاشعر بالحمى تسرى فى أعماقى فأناضل كى أطرد عنى خيالها واسترجع آخر كلمة كنت اقولها فى صلاتى .. نعم طوى عليه الشيطان جناحيه ثم حلق به الى ملكوته المستعر . . وقبل أن استرسل من جديد فى صلاتى تبدت لى صورة خاطفة وانا ألقى بنفسى بين أحضان المرأة الأولى .. رباه ارحمنى .

١٨ / ٤ / ٤٣

يا لله لقد تبدل كل شيء فى ناظرى ، فأن هذه الفكره تملأ رأسى وتأخذ على تفكيرى وأنا بين مد وجزر بين الخير والشر ، بين الروح والجسد ، وكم من مره نظرت الى قواريرى الفارغة وكتبى فلم أجد فيها ذلك السحر الذى كان يجذبنى إليها من قبل . . ، وكم من مرة حاولت أن أستسيغ أنغامى التى كنت ألعبها على كمانى فتبدو لى سخيفة مملة وبالأخص رنة الحزن الممجة ، فانا أشعر بحاجة الى أنغام راقصة صاخبة أرقص عليها باكيا . ، وكم من مرة تراءى لى ذلك المجد الذى كنت أبحث عنه ككومة تافهة تركتها ورائى فى

الظلمة مغموراً مجهولا كحشرة تتحرك فى جحر بعيد . هل هدمت كل ماكنت ابنيه من عشرات السنين ! ذلك الأمل الدافع للعمل ، وأصبحت وأنا فى مفترق الطرق أقف متردداً ، فتارة أنا الباحث المنقب وأخرى أنا الماجن المبتذل فلا أدرى وأنا بين التيارين إيهما سيجرفنى .

١٨ / ٦ / ٤٣

كم أثارت فعلتى هذه براكينى الهادئة ، فالفكرة تطرق رأسى طرقا متواصلا والحمى تمشى فى أعماقى مستعرة بالرغبة الجامحة (وهى) تستجدى وتطلب وتلح دائما . . نظراتها تدعونى وحركاتها تسألنى ، وكلماتها تهتف بى وتستحثنى ، وهى فى نومها تتقلب ارقة وكأنها ترقد على جمر وقد تعرت تماما مما يسترها ، إذ تبدت بها الشهوة مجردتها من كل شىء ، انى انظر اليها وهى فى هذا الآتون المستعر فأغلى كرجل على نار . . ، هل أستسلم أنا الآخر واغوص الى قرارة الحمأه التى تفتحت تحت قدمى ؟ . . ، لقد وجدتها تهدم روحى وفنى وأملى . . كلا كلا أيها الشيطان ابتعد عنى فأنى لاارغب أن اهب اليك نفسى لتعذبنى ، وارفع يدى احجب بهما عينى وابكى من شقائى ، وأخيراً أهرب من شرى فانهض واخرج الى القرية النائمة فى السكون حيث تبدو المنازل هادئة مستسلمة ، وتطرقنى الفكرة الآثمة . نعم ماذا تضم هذه الدور ؟ وماذا يجرى خلف الحجب والستائر ؟ ؟ ! !

رباه انى آدم وقد تفتحت عيناه بعد تلك التفاحة التى قدمتها له حواء وها هو ستار البراءة قد أزيل وتبدى خلفه الأثم عاريا ، فطردت من جنتى هذه الأرض الحصباء ، وقد أصبحت سعادة الناس سهم مسدد الى . .

آه يا حواء لقد كنت أنت فوق المجد الذى كنت ابنيه فاذا بك تهدميه ثم تمشى فى خرائبه . . حواء . . يا لعنة السماء . . يا هادمة الأرض . . لم اقتحمت على خلوتى السعيدة ؟ . . ألتقدمى لى تلك التفاحة المهلكة . . تالله لقد تبينت سمها خلال حلوها ولكن ويلاه لقد ابتلعتها .

٢٠ / ٦ / ٤٣

فى غمرة من الهدوء وكل عين نائمة رحت أنا أجوس خلال القرية المظلمة بين صيحات الكلاب المتجاوبة . وكأن العالم قد راح فى سكرة بينما خلفى وراءه ليقظتى البائسة ، وأخيرا وجدت نفسى فى محطة السكة الحديد حيث أوقد مصباح واحد لا يكاد يدفع لجج الظلام المتكاثف من حوله واستلقيت على أحد المقاعد الخشبية ووجهى الى السماء التى تبدت لى داكنة تلمع فيها حبات من النجوم المنثورة وهى تخطف حينا وتخبو أحيانا ورأيت أحدها إيسقط ويهوى تتناثر حوله الشهب الملتهبة وهو يمرق كشعلة من نار وقد ترك مكانه شاغرا يحتله غموض وابهام . . هكذا تكون الحياة فهى حبة فى عقد لا يلبث أن ينفرط فاذا بالعقد دونها .

أيقظتنى أخيرا نسمة من نسمات الليل الباردة تستحثنى على العودة فى حمى الجدر والنوافذ والأبواب المغلقة ولكن هل أعود حيث ينتظرنى ذلك الشر العظيم الذى لا يخلف وراءه إلا شعلة من نار الجحيم . . ، الجحيم التى ينكرها الناس ولكنها تشتعل باوار فى نفوس الأثمة والآثمين وأغمضت عينى هامسا أنه جنون ، أنه ندم وأسف وفرح وسعادة وشقاء وشتى مشاعر متضاربة بلا تنسيق أو تنميق ، بل هى فوضى من المشاعر المتطاحنة تتسلط على العقل وتهد الكيان فهى نار لا تمسها اليد ولكنها تلتهم النفس والعقل والعواطف . . يشعر الإنسان بعدها بالضعف والوهن وأخيرا تراه يهوى ويهوى الى الحضيض الذى لا قيام بعده .

إرحمنى يا إلهى من هذا الجنون ومن تلك النار التى تلتهمنى ومن العذاب الذى أتلظى فيه .. وقمت أسير فى خطوات وئيدة اضرب فى الظلام المخيم إلى أن تبدى لى شبح بناية قريبة ووقفت هنيهة مترددا اسائل نفسى هل يحق لمثلى أن يدخل إلى بيت الله ؟ .. وارتفع وقع خطواتى على الأرض الخشبية ، ثم أوقدت عودا من الثقاب تراءت على ضوئه الهزيل ساحة المعبد

الصغير ، واوقدت شمعة تحت تمثال المسيح المصلوب ، ورحت اتأمل وجهه المؤلم ، وجسده المجروح وصدره المطعون تسيل منه الدماء ، انه الضحية التى قدمت كفارة عن الخطيئة اللعينة فمات من أجل الخطاه ورحمة بالخطاه .. وركعت فى هدوء ولم أقل شيئا ولم أصلى ، بل أبكى وأطلق العنان لدمعى الحبيس . . وأخيرا اعترانى نوع من الهدوء وبقيت فى سجدتى ساكنا انعم فى ذلك الهدوء ، وخيل إلى أن ترانيما تترامى الى من بعيد فرحت ارتل معها بقلبى منصتا لصوتها الجميل وهى تحمل الراحة للتعانى وتقيلى الأحمال .

كان الفجر يرفرف باجنحته البيضاء خلف زجاج النوافذ عندما قمت آخذا طريق الى المنزل وقد غاب عنى الشر وكأن ستارا كثيفا قد القى بينى وبينه ، ولكنى لم اكد اقترب حتى وجدتها واقفة فى باب الحديقة ، وقد برح بها السهر والأرق واستبد بها العذاب وسألت باقتضاب وهى تصوب الى نظراتها الجائعة .

ــ أين كنت ؟ . . فقلت

ــ هاربا من فتنة المرأة المهلكة .

ــ إذن تهرب منى الآن ، ولكن لم لم تهرب من البدء ؟ ! ! .

ــ لقد كان الشيطان قوى على .

ويحك ولكنى أريدك فتعال ، وكلى لك .

ثم اطبقت على بيديها وراحت تنهال على شفتى بقبلات مشتعلة وانفاسها تختلط بأنفاسى وحرارتها تسرى فى جسدى وأحسست بالحيوان الساكن فى يتحرك وادركتنى غيبوبة طارئة وفجأة ترامى الى أذنى ذلك الهمس المرتل الذى سمعته فى المعبد وهو ينادى بالانتصار على الخطيئة والشر . . فافقت ونظرت اليها مرتاعا لأدفعها عنى قائلا :

إياك وهذا الشر العظيم لقد سقطنا مرات فلنحاول الآن أن نتخلص

ولا ندع الشر يتسلط علينا مدى الحياة ، انا اعرف الجحيم الذى قضيت فيه لياليك لأنى قضيتها بدورى فيه . فذقت الألم والعذاب والجنون العاطفى المحطم نعم لقد ارقت مثلك ، وتقلبت فى جحيم الرغبة والشهوة ولكنى لم أحتمل وطلبت منه خلاصا وأخيراً وجدته . . أعرف انى كنت السبب فى كل هذا وأنت كذلك فقد كان من الممكن أن تكونى فتاة طيبة ولكن الشيطان كان ثالثنا فغرس بيننا الفتنة واطعمنا من شجرته المحرمة ، فتعالى معى الآن وسأريك طريق الخلاص من شرنا العظيم . . تعالى لعل الله يرحمنا ..

وسرنا فى سكون الفجر إلى أن دخلنا المعبد وكان القس يردد صلواته الخافتة على المذبح المقدس وتقدمت مشيراً إلى المسيح المصلوب والشمعة التى كنت أضأتها ما زالت تحترق تحت قدميه وقلت :

— هنا اسكبى كل آلامك وهو قادر أن يعينك ، ورأيتها وهى تركع ثم تسكب نفس الدموع الغزيرة التى سكبتها من قبل بينما رحت أنا أردد مع القس بعض كلماته وأخيراً وجدتها تقوم وقد ارتسم على وجهها سلام عجيب وقد فاضت ابتسامة من الرضا والسعادة على محياها فبدت جميلة أخاذة وتقدمت آخذاً بيدها وسرنا إلى الهيكل وقلت باركنا يا أبى فانى أريدها زوجا لى وركعنا حيث راح الأب يتمتم فى صلاة طويلة .. .. لقد خلقهما فى البدء ذكراً وأنثى . . وما جمعه الله لا يفرقه إنسان .

وهمست فى اذنها قائلا انى سعيد بك الآن فاجابت .

— وأنا كذلك .

— لقد كنت فى الخطيئة خادمتى ولكنك الآن سيدتى وما اسعدنى بهذه السيادة التى فيها خلاصك وخلاصى . . لقد انتصرنا على الخطيئة ، وأغلقنا باب الجحيم .

اللغز الغامض

هل أستطيع أن أجد تفسيراً معقولا لما حدث ؟؟!! .. وهل أجد من يرشدنى إلى حل لهذا اللغز الغامض ؟! وهل نجد دائما تفسيرا معقولا لبعض الحوادث الخارقة الغير مألوفة والتى يحار الإنسان فى تعليلها وتحليلها إلى عواملها الأولية ، تظل عالقة بذكراه زمنا ولكنه لا يملك إلا أن يطويها وراء ظهره حتى ينهال عليها النسيان .

لم يكن لى صديق فى القرية التى كنت أعمل بها سوى كلب احمر كبير ، كان أهل القرية ينادونه بسبع الليل ، وكان كثيراً ما يلقانى وأنا راجع إلى منزلى أتخبط فى ظلام الليل يلحس قدمى ، فاشعر بالطمأنينة والهدوء، وكثيراً ما كان يتبعنى فى جولاتى بالقرية نهاراً ، ودائما أجده صديقاً وأنيساً لى فى وحدتى يجلس تحت قدمى فى اطمئنان وهدوء عجيبين وعرفت فى النهاية أن صاحبه جاويشا يعمل بالبوليس يسكن على مقربة منى .

وذات ليلة بينما كنت مضطجعا فى فراشى أطالع كتاباً ، وصلنى صوت غريب يشبه عواء الذئاب ، وكان الصوت قريبا جدا بل تحت النافذة تماما ، فاطللت منها على اتبين مصدر هذا الصوت الغريب ، ورأيت تحت ضوء القمر المنسكب سبع الليل وقد اقعى على قدميه ورفع رأسه فى الهواء وراح يردد عواء طويلا عميقا ، وانتظرت ان ينتهى من نباحه هذا ويعود إلى عوائه المعهود ، ولكنه ظل على حاله فى عوائه المرير . . شعرت بالضيق وأحسست بالوحشة من عوائه وكان لا يزال يردد نحيبه المشئوم ، فظننت أن مرضا قد ألم به ، فذهبت اليه كى أجلو الستر عن سر عوائه . . لم يحاول

هو أن ينهض من رقدته أو يلقانى كما اعتاد أن يفعل . بل حول وجهه واستمر فى عوائه ، فانحنيت عليه امسح رأسه الكبير متسائلا عما أصابه ، ولكنه نظر إلى بعينين حزينتين وراعنى ان كانتا مغرورقتان بالدموع ، فرحت اتحسس جسمه واطرافه على اجد كسرا او ما يسبب له الما ، ولكنى لم اجد . ورحت اسأله عن سبب عوائه فاطرق برأسه صامتا وفكرت انه ربما يعوى جوعا فاخذته الى حجرتى وقدمت له بعض الغذاء ولكنه نظر اليه من بعيد . وحول عنه وجهه صامتا ، فحاولت أن أستحثه على الأكل فلم افلح ، وحينئذ حرت فى تعليل ما اصابه ، ورحت انظر اليه وهو فى اطراقه الحزين ونظراته الشاردة فكان صورة واضحة لمعالم الحزن والشقاء ..

واصل سبع الليل نباحه طوال الليل فلم يداعب الكرى عينى واحسست بالغضب يملأ نفسى على هذا الحيوان المجنون ، فكانت الدقائق تمر على ثقيلة متباطئه ، ولم تكد تتراقص خيوط واهيه من النور على زجاج النافذة حتى كف عن نباحه تاركا النوم كى يثقل جفنى ، وانقضى ذلك اليوم ، ولم يكد يحل مساء يوم آخر حتى أستأنف سبع الليل عواءه الموحش أشد وأقوى ، وظللت اتقلب فى فراشى استدرج النوم ، ولكن . . هيهات وتلك الصيحات المترددة المتصلة تمزق السكون وتفتك بالأعصاب ، واخيرا وفى سويعات الليل القليلة الباقية غلبنى الكرى فألقى على سباته العميق ، ولكنى فجأة استيقظت على صوت طرقات مدوية فهرعت إلى النافذة لأرى غلاما صغيرا يحمل طبلا كبيرا على صدره راح يقرعها قرعات متقطعة ، فينتشر دويها حزينا مؤلما ، وكانت هذه الطريقة هى الاصطلاح الذى وضعه أهل القرية لاعلان انتقال إنسان إلى العالم الآخر ، وسمعت الناس وقد جاءوا زرافات ووحدانا يتهامسون باسم الجاويش على .

وعجبت إذ أن الرجل كان فى صحة جيدة ، وعلمت انه قد مات فى الهزيع الأخير من الليلة السابقة بالسكتة القلبية

ثم يعد سبع الليل إلى نباحه ، وجاء يقرع بابى طالبا عشاءه . . . . ، ترى هل رأى ذلك الحيوان الموت وهو يحوم حول رأس سيده ؟! . وهل له أن يتنبأ بالحوادث ؟ ! . . ونظرت إلى عينيه الصافيتين وهو يتوثب حولى . . لقد نسى الكارثة تماماً ، ولكنه رآها وهى هابطة من عالم الغيب والمجهول ، فكيف نفسر ذلك ؟ ! !

حياتى فى العمل الانسانى

هل يمكن مكافحـــة أخطر عدو للانسانية ؟

وهل يمكن القضاء على السل الرئوى ؟

إنها ليست قصة . .

ولكنها نتيجة ابحاث قام بها المؤلف على اساس علمى بحت
جاعلا من نفسه انبوبا للاختبار ، وحقلا للتجارب
ليوجه لعدو الأنسانية الأول ضربة قاضية

صورة لأروع كفاح إنسانى ضد المرض الذى يحصد كل يوم
آلاف من الآدميين فى رسالة يوجهها إلى العالم أجمع

ماريا

شيلى و نشر ترجمه يونيفرسال

لم تكن إلا قرية صغيرة تحوطها المزروعات من جميع جهاتها . . . رحت أعبر الجسر القائم على النهر الصغير ، لأسير فى طريق ملتو مغبر تملأه الحفر والمطبات ، ولم أكد أوغل فيه قليلا ، حتى برز أمامى وجه غريب مخضب من خلف مصراع باب مرجل ، فوقفت داهلا أحدق فيه النظر .. كان الوجه ممسوخا وقد تضخمت أنفه وشفتاه، واصطبغ كله بلون أحمر كالدم ، تتطلع منه عينان غريبتان راحا يرقبانى بنظرات حائرة . . . وسرت فى طريق أضرب أخماسا فى أسداس على أجد حلا للغز الذى مر بى ... وفجأة أيضا برزت أمامى شرفة كبيرة، جلست فيها امرأة متوسطة السن، سرعان ما حولت نظرى عنها إلى الفتاة الجالسة بجوارها ، وتذكرت تماثيل الرومان البديعة الممثلة بالقوة والشباب والجمال ، وحسبت نفسى فى روما وليس فى قرية بعيدة منبوذة .

ربما كانت وحشة هذه القرية النائية، والوجه الأحمر الممسوخ هما اللذان دفعاني إلى تسمم عبير هذه الفتاة ، فأغفلت طرقها القذرة المظلمة ومنازلها الضيقة المتواضعة ، وأصبحت القرية في ناظري شرفه وفتاة ، فلا أكاد أفرغ من عملي حتى أجول حول شرفتها لأشبع شوقي وحنيني إلى الخال ، فأرفع إليها عيني وفيهما خشوع العابد ورهبة المتصوف، وكان مرآها يمسح عن نفسي فظاظة الحياة وجفوتها ، خلال تلك المعالم من الفقر والعوز والحرمان التي تدمغ كل شيء بطابعها ، وكأن الحياة سجن رهيب يكبل القوم بأغلال من الذل والضنى . ويترك على وجوههم طابعه الرهيب ، أما هي فكانت زهرة بريئة أنبتتها الشمس ورعتها الضياء وحنت عليها أنسام الربيع المترفقة فملأتها شبابا وحياه ، فهي واحة نبتت في صحراء جرداء ، وكان طبيعيا أن تجتذب إليها إنسانا غريبا مثلي لم يعتد هجير الصحراء ولا قحطها .

عرفت الطريق إلى حانة والدها ، وكنت كثيراً ما أقف في انتظارها وأنا أجاذب والدها أطراف الحديث ، حتى أراها قادمة تجر كلبها الأبيض الصغير ، وعرفت في عميلا لوالدها ، فلم تبخل عليه بالتحية العابرة ، ثم لم تلبث أن راحت تسألني عن مهمتي في القرية ، إلى أن أصبحت مقابلاتنا مألوفة ، ولو أن الشيخ لم يظهر رضاءه عنها ، فكان يحاول دائما أن يشغلها بعمل ما ليضمن ابتعادها عني . ولكن لست أدري كيف استطاعت عيونها أن تسمرني على مقعدي ساعات طويلة، وأنا أرقبها وهي تؤدي عملها في خفة ومهارة . ثم نتبادل الابتسامات التي كانت أشد قوة وأبعد أثراً من شراب أبيها الكاوي .

سرعان ما فتحت لي منزلها بحجة اعطائها دروسا في اللغة العربية ، التي كانت تحاول أن تتعلمها ، ورحبت أمها بصداقتي لابنتها ، أما والدها فلم يزل على عناده ، فلا يكاد يراني في منزله حتى يلتوي كالملسوع ، وتعصف بوجهه العواصف ، ولكن نظرة واحدة من عيني زوجته كانت كفيلة بأن تجعله

يبارح المكان دون أن ينبث ببنت شفة ، فقد كان الرجل متعصبا لجنسيته ولا يرضى عن صداقة ابنته لمصرى .

كانت أمها كثيراً ما تذهب فى زيارة قريبة لها ، فكانت تتيح لنا فرصة ينفرد فيها كل منا بالآخر ، ولكنى كنت جاداً فى مهمتى ، إذ كانت تكفينى السعادة التى أحسها بقربها ، والتفاهم العميق بين نفسى الضالة ونفسها . وذات مساء كان المنزل خاليا إلا منها ومنى وكنت أرسم الحروف الهجائية المكونة لإسمها ، اما هى فلم تكن منصتة وإن بدا عليها غير ذلك ، وخيل الى أن رأسها الصغير تعصف به أفكار شتى وحاولت أن ألفت انتباهها الى الدرس ، فتطلعت إلى بعينين يملأهما التوسل والتساؤل ، ولكنى استثليت متمما شرحى ، لتسألنى فجأة

— جميل . . . ألا تجيد شيئا آخر غير التدريس ؟

فرفعت عينى اليها مستفسراً ، وقد أدهشنى سؤلها

— ماذا تعنين يا ماريا ؟ ، فقالت وقد اكفهر وجهها

— هذه الدروس يا عزيزى لم أعد أحتملها . . . بل لقد صارت عبئا ثقيلا على نفسى

— أحقا ... ولكن ألم تطلبيها أنت منى ؟

— نعم .. ولكنى وجدتها مضيعة للوقت .

— مضيعة للوقت ؟ . . أشكرك فقد ظننت أنك تقدرين مجهودى حسنا إذن فلننتهى ... الآن . . . ولكنها أمسكت بكتفى قائلة :

— كلا...كلا يا حبيبى هل أغضبتك ؟ .. إنما يجب أن نبدأ منذ الآن ... لا أن ننتهى وأحسست بأنفاسها تختلط بأنفاسى وتلفح وجهى وفى عينيها نداء ملح ، وارتسم على شفتيها اغراء طاغ وهمست :

— إنى لا أود أن أضيع حياتى فى الحرمان ... جميل أحبك ... أحبك

يا جميل هل تفهم ما أقول ؟

وأحسست بحبي الذى كنت أحاول أن أكتمه عنها يتدافع غامرا عارما فهمست وأنا أضمها إلى :

— وأنا أحبتك كثيراً يا ماريا ، وطوقت بيديها الناعمتين عنق لنلتحم فى قبلة طويلة مشتعلة ، تركت بعدها رأسها ليستقر فوق صدرى فرحت أمسح شعرها الغزير بشفتى ، لتهمس كالحالمة :

— لقد انتظرت هذه اللحظة طويلا ... وخفت ألا تأتى أبداً

— كفى يا حبيبتى ... لا تذكرينى بالليالى الطويلة التى قضيتها مسهداً وأنا أفكر فيك

— أحقاً يا حبيبي ... دعنى أنظر فى عينيك لأرى صدق قولك

— انظرى بعمق ... فقد ترين فيهما أعماق قلبي

— أنا سعيدة يا جميل ... وأنت حبي الأول ... وبودى أن أهب حبي كل شيء ... ولكن دعنى أولا أرقص لأعلن عن سعادتى فهل تسمح لى بذلك ؟

— نعم يا حبيبتى إفعلى ما يروقك ، فقامت واثبة على قدميها وراحت ترقص وتدور أركان الحجرة وأنا أرقبها ذاهلا معجبا ، ثم ألقت بنفسها على مرقدها فى وضع مثير ، فراح قلبي يدب دبيبا بين جنبي ، ونادت :

— جميل ... تعال هنا ، فوقفت جامدا أحدق فيها كالمأخوذ ، لأقول

— كلا ... أفضل أن أبقى حيث أنا ، ماريا ـ أرجو ألا لا تفسدى هذه اللحظة

— لا ... تعال إلى جوارى ... أريد أن أغنى لك أغنية

فجلست بالقرب منها على حافة الفراش وأخذت يدى فى يديها ، وراحت تغنى بصوت حلو ناعم ، وأنا أحدق فيها مذهولا ولما انتهت أغنيتها سألتنى

ـ كيف وجدت أغنيتى ؟ ! !

ـ مدهشة يا ماريا

ـ هل أعجبتك ؟

ـ جداً جداً

ـ أشكرك ولكن لِمَ لم تقبلنى ... أرجوك إفعل ... وطوقتنى بذراعيها وراحت تقبلنى قبلات مشتعلة ، ورأيت عيناها تذبلان وصدرها يعلو ويهبط ثم همست بأنفاس متقطعة :

ـ جميل . . . أريد أن أمنحك كل شيء . . . فلم لا تمد يدك وتأخذنى ... وصرخت مرة ثانية وفى عينيها نظرات غريبة :

ـ إنى أريدك . . . تعال ، . . . بينما كنت فى صراع مع ضميرى الذى لم يسمح لى أن أدنس ذلك الحب العميق الذى أكنه لتلك المرأة ... ذلك ذلك الحب المبنى على الإعجاب والافتتان بفتاة كنت أجهل تمام الجهل أخلاقها وشعرت بصدمة عنيفة ترج كيانى ، وتمالكنى مزيج من المشاعر المتضاربة بعضها مقبل والآخر مدبر ، وأحسست وقتئذ بحبى لها ينهار ويتلاشى ليخلفه بغض شديد ، وفجأة اختطفت نفسى من أحضانها ثم اندفعت إلى خارج الحجرة لأصفق الباب خلفى ، وأثب إلى الخارج كى يحوينى ظلام الطرقات ، أضرب فيها على غير هدى ، ولكن كان صوت أغنيتها يرن فى أذنى وكأنما أبى إلا أن يتابعنى

قبلنى ثانية . . . . . وحبنى إلى الأبد . . . . فإن سنوات السعادة ثوان ... ولحظات الهناء عابرة . . . والدهر الذى جمعنا سيعمل كى يفرقنا . . . . قبلنى ثانية وحبنى إلى الأبد . . . ودع الأبد يبدأ منذ اللحظة . . . . .

النار فى الهشيم

وصلتنى دعوة عرس كانت تحمل حرفى م ، ر ولما فتحتها قرأت الإسمين ماريا ، وروماللو . . . ولم أكن أعرف رجلا بهذا الإسم ، فلم أنو الذهاب ولكنى أخيراً وجدت نفسى مسوقا إليه ، ودون أن أشعر رحت أصعد الدرجات الخشبية وقلبي يحترق أسى ويتمزق لوعة ... ، لقد أحببت هذه الفتاة رغم كل شيء وقد شردتنى محاولة طرد خيالها ، وها أنا لا أفلت فرصة كى أراها . . . ورأيتها فى الردهة وهى فى أوج جمالها وشعرت بقلبي يتمزق على هذه التى فقدتها وكانت يوماً ما فى يدى ، وأسفت أشد الأسف بتعلق بما يسمونه المثل العليا . . . ، ولما رأتنى ابتسمت ابتسامة عريضة وزادت التصاقا بعريسها الهرم ، وعندما انتهى الكاهن من تلاوة صلواته صدحت الموسيقى وقام الكل إلى الرقص بينما انتحيت أنا إلى مقعد منعزل أرقب الراقصين ، بل وأرقبها بالذات وهى تراقص عريسها حتى إذاما وصلت بالقرب من الفرقة العازفة همست فى أذن قائدها بكلمة نقلها إلى أفراد فرقته وبسرعة تحول النغم الصاخب إلى أنغام التانجو الهادئة ، ثم انساب صوتها الحالم يردد الأغنية التى كان صداها يتردد فى أذنى وفجأة وجدتنى أقفز الدرج إلى الطريق المظلم أضرب فى أزقة القرية وطرقها الملتوية ، حتى ساقتنى قدماى إلى شاطىء النهر فجلست على حجر بالقرب منه ، وكان القمر المختنق يتأرجح خلف الأفق وفى خطوات مترنحة يصعد إلى السماء وهو يسبح فى بحر من الدماء ، ولكن صورتها ظلت ماثلة أمامى وهى تميل على عنق عريسها الهرم البغيض ، ثم صوتها الناعم وهو يردد تلك الأغنية ... لقد كنت مجنوناً عندما رفضتها ، ففررت من السعادة لأدفع نفسى فى هذا الجحيم من الحسرة والأسف والندم والحب المفقود ، وأغمضت عينى بيدى ورحت أبكى . . . لحظات الهناء عابرة . . . . وسنوات السعادة ثوان . . . والقدر

الذى جمعنا سيعمل كى يفرقنا . . . سيعمل كى يفرقنا ، وافقت فجأة من استغراقى على صوت زفرة عميقة ، فتركت يدى تسقط من فوق عينى لأفاجأ بالوجه الغريب الذى يتطلع إلى ، وشعرت برغبة فى الفرار ، واقترب منى الوجه الممسوخ . . . . . ، وتلاعبت الشفاة الغليظة المخضبة وقالت فى صوت أجوف غليظ .

— لاتجزع ياسيدى فإنى لست من الجن ، ولكنى آدمية مثلك نكبها الدهر بهذا الوجه الغريب . . . ، واقترب منى الوجه الأحمر ، ذو العينين البارزتين والأنف المفرطح ، حتى أحسست بأنفاسه القوية تلفح وجهى وتنهد بصوت عميق طويل وقال :

— أتبك أيها السيد ؟ . . . أرى الدمع فى عينيك . . . فلم أقل شيئاً بل رحت أتأمل هذا الكائن ذى الوجه الممسوخ ، وكيان امرأة تحمل جرتها فى يدها وقالت :

— لست أدرى . . . . إن السعادة دائما نادرة والشقاء موفور ، فأنت ترى الدموع فى عيون الشباب أكثر مما فى عيون العجائز . فسألت وقد تمالكت زمامى .

— وهل معنى ذلك أنهم أسعد منا فأجابت :

— كلا ، ولكن لم تعد لهم أحلام وآمال يشقون من أجلها ، فهم لذلك سعداء بالواقع فقلت ضاحكا :

— هذه فلسفة غريبة . . . هل انت فليسوفة ؟ فأجابت :

— قد أكون ، ولكن الناس ينظرون إلى كما ينظرون إلى حيوان غريب ، ولكن ما ذنبى إذ ولدتنى أمى هكذا ؟ فقلت وقد بدأت أطمئن إلى حديثها .

— هذا صحيح للأسف ، ولكن أظن من يسمع حديثك يعرف أنه إزاء إنسانية مهذبة ، فتنهدت قائلة :

— من يسمع حديثى ؟ . . . وهل أجد من يسمع حديثى ! ، أن الناس تهرب من مقابلتى ، وتخشى الأمهات أن يلدن مخلوقة مثلى ، والأطفال يصرخون عند رؤيتى ، ولذلك سجنت نفسى فى دارى فلا أخرج منها إلا فى سكون الليل .

— مسكينة أنت أيها الفتاة ، إنى لم لأجد حديثاً لأخرى مثل حديثك ، ما اسمك ؟

— صابرين يا سيدى . . . هذا هو الاسم الذى أطلقته أمى على عندما رأتنى ، نعم لقد صبرت على الزمن الذى نكبها بابنة مثلى

ذات الوجه المسوخ

مرت الأيام بعدها ، ولكن شوقى إلى ماريا كان يزداد ويكبر مع الزمن ، وكانت أقدامى تسوقانى سوقا إلى منزلها لأرقب النور وهو يصطخب خلف أستارها ، ثم أقضى ليلى حزيناً بائسا ، ورأتنى صابرين وأنا أعود ذات مرة إلى الحجر المعهود على شاطىء النهر ، فتنهدت قائلة .

ليس فى الحياة بهجة ، والعيون تكاد تزخر بالدمع وفى النفس لوعة . . أنك تحب ، تحب أليس كذلك ؟ فتطلعت إلى وجهها الممسوخ وسألت :

— ومن ادراك بذلك ؟

— السراب الذى تتيه فيه .

— لا . لا سراب البتة ولكنه شىء غامض لأعرفه

— أنك تطلب ماليس بين يديك ، وهكذا الإنسان دائماً يطلب غير ما يملك

— أواه ياصابرين ألا تكفين عن هذه الفلسفة ؟

— يالله . . . إنكم دائماً تسمون ذلك الذى يتعمق إلى الحقائق فلسيوفا ، ولكنه ليس كذلك أنها مجرد صراحة تكشف لك الحقيقة الناصعة خالية من الأوهام

— ولكنى فقدتها ولم أكن أعلم أنى سأحبها كل هذا الحب .

— من هى إذن ؟

— حسناً . . . إنها ماريا

— ماريا ؟؟ ماريا . . . إذن أنت مخدوع بجمالها ، إنكم معشر الرجال دائما تطلبون ما يملأعيونكم ، ولا تحفلون إذا كان هذا يفرغ قلوبكم . . أنظر إلى هذا القمر إنه يتوسط السماء وهو فى كمال أبهته ومجده ، ولكنه عما قريب سيتوارى كى يتركك فى ظلام ، وتظل تحدق فى طريقك كى تتبين خطاك وتضرب هنا وهناك وتسائل نفسك — هل رأت حقاً تلك البقاع النور وتعرف حينئذ أنه كان خدعة جازت عليك لأن أنواره زائلة وكاذبة .

— قد يكون هذا صحيح ، ولكن الحب مجنون لاعقل له كى يميز ويدرك

— آه مسكين أنت إذن إذ ستظل حياتك تحلم بالنور وتسير وخيالها يعشى عينيك فلا ترى ، إنها كالبريق أو اللمعة الخاطفة ، ولكنى أحذرك من الضعف والاستسلام ... فهى فتاة لعوب ، لا تعير الشرف أو الحياء وزنا واعرف أنها لعبت بقلوب كثيرين ولكن .. ها قد تزوجت وربما انتهت قصتها بذلك .

الأرض الطيبة

لست أدرى كيف استولى على حبها فظلت دائماً فى خيالى وسمعى ، وكنت أحاول عبثاً أن أقضى على حبى لها بأن أذكر لنفسى مراراً أنها امرأة ساقطة لا شرف لها ولا ضمير ، ولكن قلبى لم يكن يعى مثل هذه الأقاويل وكم كان يتمزق كلما مررت بشرفتها لتلاقينى بنظرة مستخفة ...

هل نزعتنى سريعاً من قلبها ، ولم تعد تذكر عنى شيئا ؟ فأرفع إليها عينى أسائلها . . . ألم تقل أنها كانت تحبنى فهل استطاعت بمثل هذه السهولة أن تنزعنى من فؤادها ! وتمنيت أن تكون بقلبها بقية فتتيح لى فرصة أكفر

فيها عن خطيئتى ... كم كتبت إليها من رسائل لم تصلها قط فكنت أجلس إلى شاطىء النهر تحت شجرة النبق الكبيرة أقرأ لها رسالتى وأخال أنها بجانبى تسمعها وتفهمها ، وبعدها أمزقها وألقى بها إلى اليم وأظل أرقب قصاصاتها والماء يحملها كزهرات ساقطة أو أعشاب جافة ... ماذا تقول عنى لو أرسلت لها إحدى هذه الرسائل ! ألا تقول إنى أحاول السطو على زوجة فيزداد بذلك احتقارها لى وازدرائها ؟ ! !..

لقد صارت القرية بغيضة وكئيبة فى ناظرى ، وأصبحت شرفتها ناراً تأكلنى وتكوينى ، فكنت أهرب منها إلى شاطىء النهر ومعى قصبة صيد حيث أنعم بالجمال الطبيعى والهدوء العذب ، وأصرف نفسى بالصيد عن التفكير فيها ، ولكنى كنت أجد دائما خيالها على صفحة الماء وصوتها مع الريح يهمس تلك الهمسات الناعمة ، فأنسى القصبة والصيد وأعود إلى تلك الأمسية التى فقدتها فيها ، حتى أفاجأ بجذبة شديدة فى الشص فأسارع باخراجه لأجده فارغا من الصيد والطعم معاً ، فكنت غالباً ما أعود فارغا ، وذات مرة كنت فى صيدى المعهود قبل الغروب ، لمحت ثلاث أخيلة تتواثب فى الطريق وقد حمل كل منها قصبة صيد طويلة ، وكان الشبحان المتطرفان لرجلين بينما كان الأوسط لامرأة ، ما إن وقع بصرى عليها ودون أن أتبين وجهها حتى راح قلبى يدب فى عنف ، وثقلت القصبة فى يدى فأدليتها فى الماء كى يحملها عنى ، ونقل إلى الهواء ضحكة طويلة ناعمة تردد لها فى أذنى ما يشبه الدوى ، وكانت هى بين زوجها وأخيها ... إنها سعيدة بحياتها الجديدة مع هذا الشيخ ، ولا أدل على ذلك من مشيتها المرحة وضحكاتها المتتابعة ، واقتربت منى الجماعة وقد ثبت بصرى على ماريا لا افلتها ، وحياني أخوها تحية عابرة ثم واصلوا السير إلى مكان يبعد عنى قليلا ، حيث ألقى كل منهم بشصه فى الماء ووقف يرقب ما يأتى إليه به الحظ .

كانت الشمس تتراجع لتحتجب خلف الأفق وقد بدت كقرص كبير

من ذهب نقى فى علبـــة من القطيفة الحمراء ، وبدت لى ماريا كتمثال من الأبنوس الأسود ... شعرها الطويل وهو يصارع الأنسام ، وصدرها الناهد الثائر ... وجسدها المخروط البديع ... وقوامها اللدن الممشوق ... وسرعان ما رأيتها ترفع شصها متهللة بسمكة كبيرة واجتمع حولها الآخران يهنئانها بالصيد الثمين ... وتذكرت وقتها قصبتى فلم أجدها بيدى ولا بجانبى لقد تركتها تسقط إلى الماء ، وبحثت عنها فوق سطحه فلم أجدها ووجدت أن قدمى قد تدلى إلى الماء فتبلل واتسخ حذائى الجديد ، فسارعت بانتشاله وقمت أبحث عن الشص الذى فقدته ... كان زميلاها قد توارياً فى منحنى النهر خلف تل مرتفع من الغرين سعيا وراء الصيد ، وسرت إليها وأنا أبحث عن قصبتى التى حملها التيار ، ورأيتها وهى تسحب شيئا بقصبتها ثم أخرجته فإذا بها قصبتى واقتربت منها هاتفا :

— هاللو ماريا ، فأجابت بهدوء

— هاللو ... هل هذه قصبتك ! أجبت

— نعم ... فضحكت ساخرة وقالت

— يبدو أنك صياد ماهر ؟ فقلت

— كلا يا ماريا إن الصياد الماهر لا يترك شصه يذهب مع الماء

— أحقاً ! ! قلت

— نعم ... إنى الصياد الأحمق الذى أغفـــل السمكة الكبيرة اللذيذة وهى فى الشص

— إذا كنت تعرف عن نفسك هذه الحماقة فلم تتعب نفسك بالصيد !

— لأنى عطشى جوعان يا ماريا ، وهذا الماء الكدر لا يعطينى السمكة التى أريدها فاذا خرج مع الشص غيرها ألقيتها من جديد إلى اليم لأنى فى انتظار الأولى التى أفلتها

— إذن عليك أن تنتظر وتجوع ربما طول العمر

— هذا مستحيل فان الصيد يحن لصائده وإلا لما اقترب من الشص صيد

— ولكن قد تكون سمكتك هذه قد أكلت حتى شبعت ولا يمكن بعد أن ، يغريها طعم فى شص ، كما لم تعد تحن لصائدها الذى نبذها كما تقول

— هل نزعتنى إذاً من قلبها !

— نعم

— هذا مستحيل فلتمنحنى فرصة أكفر فيها عن خطيئتى ، لقد كنت أحمق وقد لاقيت جزاء حماقتى ، وخيالها ظل يلاحقنى وصوتها ظل يتابعنى ويسهدنى ، واندفعت إليها فجأة واحتويتها بين ذراعى ورحت آكل شفتيها فى قبلى ، فراحت تتململ وهى تحاول الإفلات حتى واتتها الفرصة فنادت بصوت طويل — روميللو ... فأفلتها من يدى وقالت محتدة

— هل جننت يا هذا ألا تعلم أنى زوجة . ، فقلت بإصرار

— أعلم ... ولا يهمنى أن أذهب من أجلك إلى الجحيم

ووصلنا وقع خطوات روميللو المقتربة وهو يقول

— حسناً يا عزيزتى هل اصطدت شيئاً ! فأجابت

— كلا ولكن هنا سيد يريد أن يتلقى درساً فى الصيد ، واقترب الرجل العجوز منى قائلا

— آه إنك تواظب على الصيد وقد لحتك مراراً وأنت تصطاد فهل اصطدت شيئا !

— كلا للأسف . ، فقالت ماريا

— ألم أقل لك إنه يريد درساً فى الصيد . . فقال الرجل ضاحكا

— لا تسخرى منه يا ماريا فأخوك وأنا لسنا أسعد منه حظا ولا أطول منه فى الصيد باعا .

وأحسست بعدها بكبرياء تنهار ونفسى ترسف فى أغلال من الذل والهوان . . . أنها لم تعد تحنى بل لم تعد تحفل بى وحبى لها ليس فيه إلا تجريحى وتعذيبى ، وجلست أرقب فى الشحوب الثالوث المتماسك وهو يعود فى خطوات مرحة بينما كان صمت مثل صمت القبور يفرغ نفسى يثقل مشاعرى ورأيت خيالى المضطرب يشحب على صفحة الماء وقت أدب فى ظلمة الليل رافعا عينى إلى السماء الحالكة هاتفا — رحماك أيتها السماء ورفقا بى من هذا الحب واغثينى من هذا العذاب الذى أتقلب فيه . . أطلق قلبى السجين من عقال هذه المرأة القاسية إلى مراعى الحرية الخضراء .

القلب المفتون

انقضى ما يقرب من عشرة سنوات على آخر مقابله لى لماريا ، وأن ظننت أنى قد نسيتها ، إلا أنها كانت ، تكمن فى عقلى الباطن وترتسم فى خاطرى كلما فكرت فى النساء ، أو عبرت أمامى جميلة ، وكان عقلى يدفعنى دائما إلى الكتابة الكتابة عن الحب وعن الجمال اللذان حرمت منهما بعد فقدى لماريا ، فأصبحت الكتابة عندى هواية ، وأدخلت فيها عوامل التنسيق والتهذيب ، فصارت فنا فأنا أكتب وأكتب دائما ولست أدرى لمن ولم أكتب ، ولكنى كنت أظهر للنور رغباتى الحبيسة وعواطفى المتأججة وهى تتزاحم من أغوار الماضى البعيد لتملأ بعض فراغ الحاضر الممل ، كنت أرى ابتسامتها على كل شفة تجيد فن الابتسام ، وكنت أرى عينيها فى كل عينين جميلتين حالمتين ، وكنت أحس بوجودها فى زهوة الربيع وترفق ، النسيم واسمع اسمها فى شقشقة الطيور وشدو العصافير بل كنت أراها بين الورود والزهور التى تتوج الأشجار وتكلل ذوائبها . . .

واحترفت كتابة القصة فكانت هى ملهمتى أكتب اليها لأبثها شكواى

ونجواى والحرمان الذى أعانيه فى بعدها ، ورجواتى إلى الأقدار أن تلم شملنا ولو بأعجوبة خارقة ، ولكن كنت أعرف أنه أمل زائف لا يمكن أن يتحقق وقد نسيت هى فى لجة الزمن الطويل المتضارب ماضيها أو تناسته أما أنا فقد كنت دائماً إذلا أجدنى حاضرى ما يستحق النظر أو الاعتبار أرتد إلى الماضى لأجتر منه الذكريات ، وكان يلذ لى أحياناً أن أعيش معها فى الخيال ، فأتصور أنا قد تلاقينا مرة ومرات ، وجرعنا من كؤوس السعادة والسعادات جرعة وجرعات . . . وأحياناً كانت تجوز على تلك الأكاذيب فأصدقها وأسعد بها سعادة منقطعة النظير حتى لم أعد أدر هل شقيت بحبها أم سعدت . . . لقد قضيت معها فى أحلامى ليالى حمراء وصرفنا سويعات الزمن المتضاربة ونحن نعب من دن الهناء . . . باللخيال إذ يسيطر على بعض النفوس الحساسة فيضلها بين الحياة والآمال ، لقد كانت قصتها وقد إختلطت بهذا (الكامو فلاج) الغريب قصة حب كاملة . . . حب وتشوق واخلاص بينما تختفى حقائق القصة خلف هذا القناع الزائف بما فيها من غيرة وألم وحسرة . . . ولكن هذا التضيع فيه راحة للنفوس المعذبة الشقية تلف به جراحاتها فلا تعود تشعر بها . . . دعينى أيتها الأقدار فى برجى العاجى أو بجناحى الناعمين لا تصدمينى أو تقصقصينى فان أرض الحقيقة حصباء وما اقساها على قدمى العاريين . . .

اللحن القديم

كنت أقضى فترة الصيف بالاسكندرية ، وذات أمسية كنت اذرع شارع الكرنيش وأنا استلهم أمواج البحر المتضاربة وأنسامه المتواردة موضوع قصة جديدة ، ووصلت إلى منحنى يغمره الظلام قليلا فوقفت أنصت إلى صوت البحر وهو يلاطم الشاطىء ، وينهش عنقه بمخالبه القوية ، وأرقب أنوار المنار وهى تشق حجب الظلام المتكاثفة فوق الأمواج الثائرة ، وفى لمعات خاطفة تصفع أمواجه المتلججة ، وهى تحاول عبثاً أن تطارد ما يجثم فوقها من أسرار ... هدير يعقب هدير ، وتل ينبسط فى أثر تل ، وموجة تلاحق موجة

وألسنة الأمواج البيضاء تعلق الشاطىء مزبده ، والمعركة بين البحر والشط على أشدها . . . وصاخت أذنى بغتة أنغام ناعمة حملتها إلى الرياح وارتدت بها سريعا من حيث أتت . . . ، وأحسست بالشاعرية تتملكنى فاذا بى أسبح فوق اللجج المتضاربة فارتفع بين ألسنتها أو أهوى بين أحضانها، ثم لم تلبث الانسام ان اختطفتنى من جلال البحر ، إلى وداعة البر حيث الهدوء والامن بعيداً عن معركة الماء المحتدمة ، وارتد بصرى إلى المنازل بأضوائها الخمرية فازداد حنينى إلى الدفء والسلام، وصافح أذنى النغم الناعم من جديد يتضوع برائحة العطر والخمر والشباب ، وقبل أن تعود به الرياح كنت أتبعه إلى حان (بلالايكا) على الجانب الآخر من الطريق، وراحت الأنغام تزداد وضوحا وأنا أصعد إليه الدرجات القليلة ، وأخيراً وجدت نفسى فى غمرة من الضوء والنغم ، وزحمة تموج بالراقصين تتحرك فى هدوء وانتظام ، وقد سما بها النغم الدافىء الوديع فلم تعد تحس بخطا ها . . . كل عين فى عين . . . ، وكل مهجة تتابع قلب . . . وكل روح تهيم بروح ، بينما وقفت وحيداً ارى السعادة ولا أدركها، وأحس بنشوتها دون أن أجرعها، أحمل فى جنبى مزيج من الوحدة والوحشة والألم . . . ، وانتحيت إلى مقعد بعيد أرقب موكب الحياة ، وهى تزف إلى عرسها فى ليلة سعيدة مرحة ، بل فى ليالى ترجع بها إلى الأزل وتمتد بها إلى الأبد . . . ، وأخرجت من جيبى قصاصة من الورق رحت أطبع عليها مشهد هذا الحفل ، ونسيت الجو الصاخب من حولى واندمجت مع قصاصتى . . . عينها فى عينى . . . وقلبها يخفق مع قلبى وروحى تنسكب فى روحها . . . ، وأفقت على صوت تصفيق حاد، وقد انفرط عقد المتراقصين وشخصت أبصارهم إلى غانية تتختر فى رداء وردى إلى حلقة بالقرب من الفرقة العازفة . . . واستأنفت الموسيقى همساتها الناعمة وتساندت الصدور وهى تدور بالخصور . وعدت أناجى قصاصة الورق التى أمامى من جديد . . . ، وانسابت إلى أذنى آهة طويلة عميقة أحسست لها مايشبه النار الآكلة فألقيت

بالقلم كى يتصفح السطور القليلة التى كتبتها وتطلعت إلى المغنية التى اثارت كوامنى . . . شفاهها الممتلئة الشهية . . . وعينيها الواسعتين المعبرتين . . . . والنظرات العميقة المتسائلة . . . والشعر الذهبى المهدل الطويل ، ثم الصدر الصاخب الثائر وصوتها الدافىء الحنون وهى تقول :

اكره ان تؤذن شمسى بالمغيب . . . ، او يدب فى عارضى شحوب الذبول ، فأنا زهرة برية لا اخاف حر الهجير . . . او امل الفراش وهو يعتصر منى الرحيق . . . قد فتحت للشمس قلبى ، وملأت بالهواء روحى . . . وصبغت بالألوان كاسى ، كى اغرى واسكر واسبى .

وبغتة وجدت نفسى أعود عشر سنوات إلى الوراء ... ذلك الصوت الدافىء العميق ، لم أسمعه قط من شفاه غير شفاه ماريا ، وتذكرت نفس الشفاه وهى تهمس فى أذنى فتسكب أغنيتها فى مشاعرى . . . ولكن هل يمكن أن تكون هذه ماريا؟... نفس الجسد اللدن المخروط ، ونفس التقاطيع الجذابه الصارخة ، ما عدا خلاف يسير فى لون شعرها . . . ولكن كيف تركت حياتها الزوجية لتحترف الغناء ؟ ، وماذا يدفعها إلى ذلك وهى زوجة التاجر الثرى ؟ ؟ ! ! . .

وتأوهت الشادية من أعماقها ، وهى تقول اكره أن تؤذن شمسى بالمغيب . . . ولكن ماذا أفعل وحياة الربيع قصيرة . . . وأقصر منها حياة الزهور . . . ؛ وكانت الدموع تتألق فى عينها وهى تردد الشطر الأخير من أغنيتها ، وارتفع التصفيق يزعزع أركان الصالة ، وانحنت هى انحناءة خفيفة فتهدلت سبائك شعرها الذهبى الغزير حول وجهها ، وكدت أصرخ من أعماق هاتفا (ماريا) ، وقد توأثب قلبى بين أضلعى كالطائر الحبيس فكدت أثب إليها ورفعت يدى ملوحا ، فنظرت تجاهى مستطلعة ، ورأيتها تغمض عينيها وتفتحهما ثم ترسل إلى نظرة طويلة عميقة ، ولكنها إنحنت بغتة مرة أخرى وانصرفت على عجل . . . وحرت . . . هل يمكن أن تكون هذه ماريا ؟

إنى لم أعرف لأخرى مثل صوتها . . فهل نسيتنى ولم تعد تذكرنى ؟ ! . . لا بد أنها أخرى تشابهها إلى حد بعيد ، واقترب منى الخادم ، فسألته عمن عسى أن تكون السيدة التى كانت تغنى فأجاب :

— إنها بربارة يا سيدى، ألم تعرفها من قبل ؟ . . . أنها مشهورة فى جميع ملاهى الاسكندرية .

إذن قد خاب ظنى فى هذه المرأة ، أن ذكريات عشر سنوات خلت لا تريد أن تنقضى بعد ، وهى تلازمنى وكأنها قد استقرت فى باطنى . . . ، وبينما أنا فى أفكارى هـذه قدم إلى الخادم بطاقة قرأت عليها اسم (بربارة هانس) وعرفت فى التو إنها من الشادية ، وقلبت البطاقة فى يدى متردداً ثم سألته عما تطلبه السيدة منى ، فابتسم الرجل ابتسامة ماكرة وكأنما قد أدهشه غبائى . وهتفت قائلا

— أنها تنتظرك ياسيدى فى حجرتها . ، ماذا تريد منى هذه المرأة ؟ . . أنها صدى للماضى ، بل صوت أول عاطفة طرقت قلبى فأثقلته . . .

هل أذهب إليها أو لا أذهب ؟ .. ولـكن هل لى أن أخشى على شىء ؟.. كلا سأذهب لأسبر سر ذلك الصوت بأصـــدائه التى لا تفنى، وقمت لأتبع الخادم الذى عبر الصالة إلى ممر داخلى ، وتقدم إلى حجرة منيرة يقرع بابها وهتف صوت نسائى من الداخل ـ أن أدخل ، فأدار المقبض وتبعته إلى الداخل . . . كانت بربارة هذه تجلس إلى مائدة مستديرة واضعة ساقا فوق أخرى ، وهى فى ثوب مسائى مفتوح يكشف عن سافيها المخروطين ، وفى يدها لفافة يتصاعد دخانها ، وتأملتنى بنظرة طويلة جامدة ثم أخذت من لفافتها عدداً من الأنفاس القوية ، ولم تلبث أن ارتسمت على وجهها ابتسامة واهية وهمست .

— هللو (جميل) . . . ألم تعد تعرفنى ؟ . . ، ونظرت إليها دهشا

وسألت (ماريا) . . . ؟ ، فأشارت الى بالجلوس على مقعد مجاور فجلست تملأنى الدهشة وقلت

— ماذا عن بربارة اذاً ؟ ! !

إنه اسم مستعار يناسب امرأة مثلى ، لابد انك مندهش لوجودى هنا . . . اليس كذلك ؟

— حقا انى فى غاية الدهشة ، فلم أكن أتوقع قط أن القاك فى مثل هذا المكان ! !

— ان لذلك قصة طويلة ، ولو كان لك علم بتفاصيلها لتوقعت وجودى فى مثل هذا المكان

— وما هى هذه القصة ؟

— أتود سماعها إذن ؟

— طبعا

— حسنا إذن . . . وسألت وهى تقدم لى علبة سجائرها هل لك فى لفافة ؟

— حسنا . . . شكراً

— سألخص لك هذه القصة فى كلمات قليلة . . . وسحبت عدة أنفاس عميقة من لفافتها ، ثم القت برأسها إلى الوراء وهى تستعرض شريطا من الذكريات . . لم أسعد فى حياتى مع روملو . . . فقد كان رجل أعمال لا يفهم شيئا غير العمل ، وبعد شهور قليلة من زواجى ، فكرت فى الفرار من سجن الزوجية وعاونني على ذلك ضابط شاب ، كنت تعرفت عليه أخيرا فهربت معه ، ولكن اتضح لى أنه خدعنى ، وغرر بى ليستولى على نقودى ومصاغى . . . وخلصنى البوليس من قبضته عندما قبض علينا فى أحد فنادق القاهرة . . . لم يصفح عنى روملو ولم يغفر لى ذلتى ، بل صار حقده على شديدا ، وأخيرا طلقت منه وكانت هذه نهاية زواجى الفاشل . . . ، وساقت الأيام إلى شاب يدعى حلمى راقه جمالى فراح يبدى لى من حبه وأخلاصه ماجعلنى به أثق

فصادقته وقد ملأ الفراغ الذى خلفه روملو . . . ولكن لم أكد أبشره بأنى سألد له طفلا حتى اختفى وتبخر من حياتى تماما . . . لقد عرفت بعده الكثير من الرجال من كل نوع ومن كل جنس . . . . . وها أنا برباره الا ينطبق على هذا الاسم ؟

رأيت فى عينيها مقدار ما تقاسى من ألم وتعانى من عذاب وتراءت لى وحيدة تناضل فى معترك الحياة القاسية، وما أقساها على فتاة غريرة أفسدها التدليل فدفعها لأن تبيع جمالها ودلالها للشيطان ، وأحسست بقلبى يتفتت من أجلها . . . وبغتة سألت

— وماذا عنك ، فانا لم أسمع عنك منذ ذهابك إلا قليلا . . . هل تزوجت . وأنجبت أطفالا ؟

— كلا

— ولم ؟ ! !

— لأن خيال إمرأة واحدة ظل يملأ حياتى ، فحرمنى رؤية أية امرأة أخرى عداها . . وصوتها أصم أذنى عن سماع أى صوت آخر فظللت أعيش لها وبها

— إذا كنت تحب هذه المرأة إلى هذا الحد ، فما الذى منعك من الحصول عليها ؟ ! !

— لقد حاولت ذلك ولكنها صدتنى ، وعرفت أنها نزعتنى من قلبها ، وقد ظننت أنها كانت سعيدة فى حياتها مع زوجها

— إنك تذكرنى دائما بالصياد الخائب

— نعم إنى كذلك لأنى أصررت على الحصول على السمكة الكبيرة التى كنت قد أفلتها

— انتظرها إذا . . . لأن الصيد يحن إلى صائده . . .

— ربما تكون قد أكلت حتى امتلأت، فلم تعد تحن إلى صائدها الذى نبذها

— كلا لا أظن ، فانها مازالت تذكر شكة الشص فى حلقها فظلت دائما تفكر فى صائدها . . . ، ولما اختفى شصه من الماء ، راحت تلتهم كل طعم فى طريقها علها تجد فى أحدها صائدها . . . ولما لم تجد وقفت بالقرب من الشاطىء حائرة

— أحقا . . . هل دخل الإخلاص قلبها ؟

— نعم . . . بل أفنى الوفاء عمرها . . . كانت تراك دائما بقصبة فارغة وقد نبذت كل أخرى من أجلها ، وأحست بما تقاسيه من ألم وتعاسة ، ورأتك بين أسطرك وأنت تقف ظامئا جائعا ، وأنت تهمس من الماضى البعيد قائلا هذا الماء الكدر لا يروى غليلى ، ولا يعطينى السمكة التى اريدها

ورأيت قطرتين من الدمع تتألقان فى عينيها وأحسست بمبلغ ادراكها وتألمها فاطبقت على يدها اقبلها وهمست وهى تمسح رأسى

— (جميل)

— نعم ياملاكى

— الا زلت تحبنى ؟

— نعم ، وكما لم احب أحدا من قبل

— هل نسيت انى امرأة ساقطة رخيصة ؟ !!

— نعم . . . فمن منا بلا خطيئة

— أشكرك . . .

وظللنا لحظات يحدق كل منا فى عينى الآخر ثم أشرقت الابتسامة فى ثغرها وقامت ثم القت بفخذها العارية على حافة الطاولة لتلفحها أنفاسى المضطربة ، ثم راحت تهمس بالاغنية التى كان صداها يرن اذنى . . . قبلنى ثانية . . . وحبنى إلى الأبد ، فإن لحظات الهناء عابرة . . . وسنوات السعادة ثوان . . . والدهر الذى جمعنا سيعمل كى يفرقنا . . . قبلنى ثانية وحبنى إلى الأبد . . .

ودع الأبد يبدأ منذ اللحظة . . . وانحنيت على ركبتها أقبلها فى نهم ، بينما كانت تمسح رأسى بيدها الناعمة ، ثم رفعت شفتى إلى شفتيها ، ولكنها أشاحت عنى بوجهها . وأحسست بعاصفة قاسية تعتصرها ، فوثبت على قدمى لأهمس خلف اذنها

— ماريا . . . ماريا . . . ، ولكنها لم تحول الى وجهها فسألت وأنا أدير وجهها الفاتن الى

هل أغضبتك ؟ . . . ماذا حدث ؟

وراعنى أن رأيت عينيها تفيضان بالدموع ، وقد ارتسمت على محياها شقاء مرير ، ورأيت الحسرة تعتصرها ، فكدت أذوب المـــا وحزنا وهمست ثانية

— ماريا . . . إبتسمى . . . ما هـذه الدموع . . . أهذا مجالها ؟ . . . الا تشعرين بالسعادة بقربى ؟ ، ولما لم تجب قلت

إنى ذاهب إذن . . . فهمست هى

— يستحسن أن تذهب الآن . . . اذهب ارجوك ، . . . فوقفت حائرا فى تعليل تصرفها ، ثم سألت

— وهل وجودى يشقيك إلى هذا الحد ؟ . . . ما كنت أظن ذلك !!

وتلاحقت الدموع من عينيها فلم أحتمل منظرها وقلت « حسنا . . . لاتبك . . . إنى ماض » . . . ، وخطوت أولى خطواتى نحو الباب وأنا أشعر بالمرارة تقطر فى اعماقى ، وهمس هامس فى نفسى « يالك من شقى . . . شقى تعس . . . » ووقفت مترددا على مدخل الباب ، ثم القيت اليها بنظرة اخيرة ، وبغتة وجدتها تسقط من فوق الطاوله إلى الأرض ، وهى تصرخ تنادينى « جميل . . . جميل لا تذهب بالله لاتذهب » ، فوقفت مذهولا اتطلع إليها واخيرا سألت

لماذا تريدين وجوى مع انه يشقيك ؟ . . . إنى ذاهب حتى لا اسبب لك كل هذه الآلام » ، ولكنها همست قائلة

« لاتذهب قبل ان تعرف » ، وكان سرها حقا يشوقنى ، ويستهوينى فلم تكن ماريا فى نظرى كسائر النساء بل كانت ملهمتى ووحيى ، فاردت ان أعرف سر شقائها وتعاستها ، وتمنيت لو استطعت مساعدتها . . . وتقدمت فى خطوات وئيدة ، واخذت بيدها المرفوعة ، ثم اجلستها على مقعد بالقرب من الطاولة ، وبدا لى انها تتخلص سريعا من اشجانها ، وذهبت بسرعة تمسح دموعها ، ثم عادت ومعها زجاجة من الخمر وكأسين ، وملأت لى كأسا ولها اخرى وقرعت كأسها بكأسى

« هذا نخب صداقتنا القديمة . . . القرية الهادئة وصائد السمك »

فملأت كأسها وكأسى وقلت

« هذا نخب فتاة السوسن الجميلة واغنيتها الخالدة »

وانتظرت حتى تحدثنى عما يحزنها ، ولكنها فاضت مرة تتكلم عن ذكريات الماضى السعيد ، وعن احلامها وآرائها فى ذلك الوقت ، وكيف كانت الحياة فى عينيها جميلة جذابة ، حتى فى تلك القرية النائية وتمنت لو تعود كما كانت طفلة صغيرة مرحة ، لا تثقلها احزان الحياة فقلت « ليس للسعادة اوقات او ازمنة . . . إذ يمكن ان نسعد فى اى وقت وفى اى زمان ، فالسعادة مجرد إيمان . . . وكان يمكن ان اكون سعيدا فى هذه اللحظة ، لو لم تطرحى امامى احزانك » ، وملأت لنفسها كأسا جرعتها بسرعة ثم قالت

ومن ادراك بأنى شقية ؟ . . . إنى سعيدة وفى منتهى السعادة ، فما الذى يمنعك من ان تسعد معى ؟ »

لم اكن اكثر منها إقبالا على الخمر فقد كانت لا تستطيع ان ترى الكأس فارغة او عامرة ، وراحت ترقص وتغنى وتضحك ، ثم تعب من زجاجات الخمر التى حملتها إلى المائدة ، فكنت انصحها بأن تقلل من الشراب ولكنها

كانت تسخر منى، ثم تملأ كأسى لتسكبها بين شفتى، حتى احسست بدوار فى رأسى لكثرة ما اسقتنى من شراب . . . وفى لمحات خاطفة رأيتها تهوى إلى الأرض ، فتحاملت على نفسى بصعوبة مبارحا مقعدى، ولكن خانتنى قدماى وفقدت اتزانى وخيل إلى أن جدران الحجرة تدور دورات سريعة خاطفة، فتعلقت بحافة المقعد وأنا أنادى باسمها ، ولكن حنجرتى لم تكن تعيننى ، وخيل إلى انى اهمهم همهمة غريبة . . . وقفت لحظة أحاول فيها أن اسيطر على مشاعرى ، ولكن المناظر كانت تتلاحق سريعة مختلطة تتدافع أمام عينى . . . سقف الحجرة وجدرانها وهى تتبادل الاوضاع ثم الأرض وقد حلت مكان السقف أو الجدار وأنا ناظر إلى كل هذا من علو شاهق . . ولكن أيناها ... لقد كانت بالقرب من الطاوله ! ! وهل كانت الطاوله على الأرض أم فى السقف ؟ . . . ولمحت الطاوله وهى تدور أمام عينى وبدا لى أنها نقلت إلى سماء الحجرة ، وبالقرب منها رأيت ماريا وهى تختلج وتضطرب وارتسم على وجهها شحوب مخيف . . رباه هل ماتت ؟ . . . وتشبثت بحافة المقعد حتى لاتغيب عن ناظرى ، وكانت ذراعها منبسطة بحطام الكأس التى كانت تجرعها ، ورأيت بالقرب من رأسها بركة قانيه حمراء ، وبسرعة اختلطت الحجرة فى ناظرى من جديد ، ولكنى اندفعت من مكانى فى الاتجاه الذى ظننتها فيه ، ولم تلبث أن خانتنى قدماى فهويت إلى الأرض وقد أصابتنى صدمة قوية. ولكن لم أكن لأنسى منظرها والبركة الحمراء بالقرب منها، فقمت متحاملا وصرخت « ماريا » ، ولكن صوتى كان عجيبا كان اشبه بنداء أخرس ابله، وسرعان ماسقطت من جديد، واحسست بصدمات قوية تزعزع كيانى وتحطم رأسى وجسدى ... وعاودت محاولة القيام فلم تساعدنى قدماى، فاقعيت على ركبتى ورحت أبكى ، وبعد مضى زمن لا أدرى مداه وجدت نفسى قادرا على الزحف إليها ، لاتحسس جسدها الشاحب الذى لم يخل من حراره الحياة ، ووقع بصرى على البركة الحمراء وجهها الشاحب ، وقد ارتسم عليه رعب شديد ، فرجت أمسحه بقبلاتى أواه ؟ . . . هل هذه دماء رباه

ماذا دهاها . . . هل قتلت نفسها ؟

كانت تتنفس فى صعوبة ظاهرة، وصدرها يعلو ويهبط بشدة وهى تكافح من أجل نسمات الهواء ، وتحشرجت انفاسها وبدت لى كمن يختنق، فاحتويتها بين ذراعى وتمنيت لو استطيع دفع الكارثة عنها

ماذا حدث . . . خبرنى ياحبيبتى لِمَ لم تذكرى لى شيئا من قبل ؟ . . ربما كان فى استطاعتى مساعدتك . . . هل جرعتى سما أم قتلتى نفسك ؟ » ، ولكنى لم أرى أثرا لطعنة بأى آلة حادة ، ورأيت جسدها يبلله العرق الغزير حتى صارت كالاسفنجة المبللة ، ثم راحت تسعل سعلات قوية ، وهى تفتح عينيها وفيهما ذلك الرعب القاتل ، وانبعثت من فمها كتلة من الدماء الحمراء المتجمدة ، وتململ رأسها الجميل وهى تنظر الى نظرات محمومة ، فصرخت

« ماذا بك يا حبيبتى . . . تكلمى . . . سأذهب لأحضار الطبيب

فراحت تهز رأسها سلبا ، ثم همست بصوت متقطع واه « جميل . . . اذهب بربك . . . اذهب . . . انه الطاعون الأبيض . . . الا تخشى على حياتك ؟ . . فلما لم أتحرك ، اردفت تقول

أرجوك . . . اذهب وانج بنفسك . . . إنى وباء . . . الا تفهم »

رأيت وقتها الحياة ببريقها وآمالها تنهار وتنطفىء أنوارها لتغمرها حلكة قاسية ، ورأيت الموت ينشب أظافره القوية فى فرائسه الغضة فيسلبها الحياة . . إلا ما أتفه هذه الحياة . التى يسلبها المرض ليسلمها ليد الموت لقمة سائغة ، وعجبت كيف استحل المرض الكريه صدرها الشهى وأنفاسها العطرة فمزقه وأحرقها . . . ولم أشأ أن اتركها وحيدة ، فلم اك أخشى الموت وقد قضيت حياتى، وحيدا شريداً لا اعرف لى مستقرا اوماوى. طريد الذكريات المريره الملحة . . . وخيل إلى إنى استطيع مساعدتها ، وحمايتها من الداء اللعين الذى يأكلها كما تأكل النار الهشيم ، وبارحنى اثر المشروب فحملتها بين ذراعى لأرقدها على مرقدها فنظرت إلى شاكرة ، ولكن لم تلبث ان اعترت وجهها سحابة

غائمة، وتقلصت عضلاته بشدة ثم سعلت سعلات قوية محمومه، ورأيتها تبصق عصارة شبابها وحياتها ، ونظرت إلى وجهى الحزين مرتاعة وقالت برجاء

« جميل اذهب . . . اذهب واتركنى لشقائى ، ولكنى لم اتحرك أو اغادر مكانى . ورأيت الدموع تتألق فى عينيها المثقلة ثم تنساب غزيرة على خديها ولتنتابها نوبة عصبية وصرخت

« لِمَ تصر على تعذيبى ؟ . . . ألم أقل لك أن تذهب . . . فلِمَ تصر على البقاء . » وانحنيت عليها اهدئها وامسح شعرها الجميل وهمست

« ولكنى سأبقى . . . فليس هنا مايحول دون بقائى » فقالت

« الموت . . . الا تخشاه » قلت

« كلا . . ما خشيته طول حياتى »

— « إذن اذهب من أجل شبابك وآمالك »

— بل سأبقى من أجل حياتى وحبى

— ولكنك ستقتل نفسك بذلك وأكون أنا الجانية عليك

— كلا . . . لا أظن ذلك ، فقد جنت على الأقدار من قبلك وربطت فلكى بفلكك فلم أجد فكاكا ، وهاهى تجمعنى بك فى هذه اللحظة الشقية ، . . فهل لى بعد ذلك أن أحاول الهرب ؟ . . . إن الانسان لا يستطيع أن يهرب من القدر قط ، فقد كان حبى لك أبديا وليس فى الحياة أبدين . . .

ورأيت الأبتسامة تفيض من وجهها، وضغطت يدى بشدة ... واستطاعت السعادة أن تنفذ من بين براثن الموت القاسية زمنا ، ولكن لم تلبث آنيابه الحادة ان راحت تلتهم كلينا

دعوا قارب حياتنا يعبر الامواج العاتية ، ويصل سريعا إلى شاطىء السلام ، فهو يعرف طريقه ولم يعد بحاجة إلى نوتيه أوربان . . إنه يعبر طريقه الآن فى امان ، وفى قلبه أشلاء من دماء وارواح وانسام

ابن بوهيميا

ارقص كاللهب على النغم الصاخب الثائر

إذا سير فى خمنك ايها الليل الحزين ، انشد الدفء فى الكأس او الصدر الحنون . . . ، ارى تلك النجوم وهى تخفق بالنور فى سمائك المربده فأسير يدفعنى الشوق والحنين إلى المتعة المحرمة ، والرغبة فى اللهو وانواع المجون اعرف ان بين اسمارك إمرأة ، تنتظر وقلبا يخفق باللهفة الفائضة . . . فإذا

لاقيتها قضيت بين احضانها امسى، او افنى بين ذراعيها يومى . . . إنى تائه جريح وما أحن نفسها على نفسى . وما أدفأ هذا الصدر لصدرى . . . ، قد انسى رطوبة الليل وخواء الجيب وتعاسة الحياة ، وهى تصفر بريحها العاتية ، وها انا بين احضانها اتمنى ان افنى بها او يفنى العـــالم بنا ، وقد افيق فاشعر بالنزوة الطارئة تلتهب فى حمية وفورة، فأرقص كاللهب على النغم الصاخب الثائر

هاتنى ايها الساقى بكأس تلو الكأس، ودعنى اجرع نخب حياة الليل التى اذيب فى كحلها وخمرها شقائى . . وقد طال بى الليل واشتد على الزمهرير فلم يعد يدفئنى كأس او ذراعى غانية . . ، ورأيت النجوم اللامعة تهوى من افلاكها أفلة ، والسماء قد صارت مرعدة مكفهرة ، . . فسرت فى طريق الى الظلمة القاتلة . وروحى تتلاشى وتنهار كى يغمرها الضياع . . . . .

لقد اصبحت ماضيا وذكرى ، وما خطرت لنجوم الليل عنى فكره ، وتناستنى الغوانى وجميلات النساء . والنغم مازال راقصا والليل يطاول الصباح وقد خبا من الليل نجمى الذى لمع . . . ولكن كم فى الليل غيره من نجوم ؟؟

الملاح التائه

لست ادرى أين تلقى المرساة ايها البحار العجوز ؟ ؟ ! ! ، فالبحار امامك كلها امواه والريح دائما نائحة ، والسماء الفها زرقاء او عابسة . . . دع لهذه الأمواج ان تتطاول ، ودعها تلطم وتتشامخ ، وان تروى بالرذاذ جسدك ، واترك للريح ان تعابث شراعك المهزول . . . ، فلم يعد هناك بعد مرمى ، وقد تقاصى الشاطىء ، ولم يبق لك الآن الا الفرار من حاضرك الممل ومستقبلك السقيم . . . ، نعم اتركه لها انها تعرفه وتعرف كيف تصيره ، وها قد حفرت له فى بطونها مقبرة واى مقبرة . . .

لقـــاء

يا زهرتى الجميلة ، كم أنوق إلى رؤيتك ، وأشتعل وجداً وشوقا إليك .

هل ما زلت بجمالك ؟! وهل مازالت بك رائحتك العطرة، ونضرة الربيع اليانعة ، ورونق الحياة الخلاب ؟ ؟

هل ما زالت بك الآمال التى حببتك إلى ، وإلى قلبى السجين ؟ . .

هل ما زال لك السحر الخلاب ، والروح المرح الطروب ؟

ها هى عجلة الأيام تدور ، وتتحول مع عقارب الساعة التى تحصى علينا ثوان الحياة، وقد ازدادت نفسى لوعة ، وبرح بها الجوى واستحكم فيها العذاب ورحت أحلم أن أراك . . . ولو لمحة من بعيد فاطفىء ما قد اتقد فى نفسى واشتعل فى وجدانى . وكانت الأيام تبخل على حتى بهذا الحلم ، فظل أملى معلقا حائراً يصطدم بالخيبة والحسرات .

وأخيراً . . . لمحتك قادمة من بعيد ، وخلت أن الأيام حققت حلمى وارتفع وجيب قلبى، حتى ملأ أذنى، فسلبنى إحساسى، وأنفاسى ورحت أقترب وئيداً وئيدا . . لاتكاد تحملنى قدماى وأخيراً . . والفجيعتاه .. أهذا ما أبقته الأيام من زهرتى، وهذا ما تركته فى محبوبتى ؟ . . كيف حلت هذه العيون الغائرة محل عيونها الساحرة ، وكيف ارتسم الفم الشاحب فوق فمها الشهى ؟ وكيف اختفت التفاحتان من خديها كى تبدلها ليمونتان ؟ . . أين روضتى الجميلة وأين حديقتى الغناء ؟ . . أين ساحرتى الشادية ، وكيف غاضت فيها الحياة ؟ . . أين أغاريد الطير وألوان الشروق ؟ . . هل كانت وهما قد ارتسم فى خاطرى ، أم رؤى بادت من ناظرى ؟ . .

حبيبتى لست أدرى كيف إجدب بك أمسى!، وماتت فيك عواطف نفسى ولم هجرت أرضى وقاطعت سقوى وحدبى ؟ . . ولم هجرت دنياى إلى دنياك ودنيا غيرى ؟ . .

ألا تذكرى أنغامى الناعمة وهى تهمس لك بحبى ، وريشتى النابضة وهى تسجل لك مفاتن طيرى وزهرى ؟ . . ألا تذكرى أشعارى التى كنت أسكبها فى أرضك فتروى مفاتنك

لقد دالت دولتى بذهابك، فلم يعد فى نفسى شعر أو غناء، واختفت ألوان الحياة الزاهية التى كانت تملأ روحى ، وقد دالت دولتى بذهابك ، والآن فقط عرفت أنه قد دال معها جمالك .

رحماك يا إلهى فإنى طائر بلا فن وقيثار بلا نغم ، وريشة دون طلاء . . لقد ضاعت دنياى وضاع فنى

يصدر قريبـــاً للمؤلف

شارع الانفس التائهة

قصة إمراة إنساقت مع عواطفها الجامحة ، فدفعتها إلى السقوط

وهناك فى شارع الانفس التائهة

راحت تكرع من كؤوس المرارة والوحل

لإنقاذ حياة الرجل الذى خدعها

(وهناك فى ظلال الشارع وصلتنى همسات ، وضحكات ناعمة

ورأيت فى ظلال الطريق ، رجلا وامراة ملونة)

على ضفاف البحيرة الزرقاء

بدأت الحرب وانتهت ، وجند كثيرون وسرحوا أيضا ، ولكنه ظل مجنداً دائما لا يعرف متى ومن يسرحه ، فمنذ بدأت الحرب وهو يجوب الصحراء مع القوات البريطانية المحاربة ، فتمتع بالغطيط تحت قنابل وأزيز الطائرات فى طبرق . وعرف الشبع والامتلاء وهو محاصر فى بنى غازى ، وكاد يلقى الصديق العزيز عزرائيل فى سيدى برانى ، وأخيراً تعطفت عليه الأقدار (السلطات) فنقل إلى الاسماعيلية ، حيث أنس إلى البحيرة الزرقاء وابتدأ يجلو الصدأ الذى كان قد تراكم على قلبه وعينيه ولكن هذا التعطف لم يدم به طويلا إذ لم يلبث أن نقل إلى التل الكبير ، لتحتضنه الصحراء من جديد بحرها اللافح وجفافها الفظيع ، ولكنه ما لبث أن اعتاد الرمال وحياة الخيام ، ولم تعد المدنية فى نظره إلا أملا فى أن يقضى سويعاته فى عالم ملىء بالنساء اللائى خلت منهن حياته ، وقد كان للمال أو قل للحاجة بريق جذاب ، ربطته برباط لا ينفصم بتلك الصحارى وحياتها الخشنة المجدبة .

حاول جاهداً خلال الزمن الذى قضاه أن يبنى حياته ويندمج كعضو فى الهيئة الاجتماعية ، فيتزوج ويركن إلى عمل مستقر يؤهله لحياة هادئة فى مدينة كالقاهرة ، بل حتى فى إحـــدى قرى الريف الصغيرة ، ولكنه لا يعرف لم كانت تسد فى وجهه المسالك ، وحتى الشركات رفضت أن تفتح بابها فى وجهه ، وأخيراً استكن إلى حياة الصحراء ، واستكنت هى إليه فلم يعد يريد عنها بديلا ، وألف الرمال ووهج الشمس ، ورياح الخماسين وبرد الشتاء القارس ، والحر اللافح ، بل لقد صار هو جزءاً لا يتجزأ من هذه الصحراء فإذا ما رجع من عمله إلى مخيمه الذى يتأرجح كالشراع تحت ضربات الريح أو يرتعد كالطائر المريض ، خلع عنه حلته واستلقى وهو بملابسه الداخلية فقط ، على مرقده الخشن وسرعان ما يرتفع له غطيط منتظم يستمر إلى

الغروب ، وأخيراً يتقلب متكاسلا وهو يتثاءب بصوت مسموع يشبه الصراخ أو البكاء ، ويظل مدة وهو يتأمل سقف مخيمه وهو ينتفض تحت ضربات الريح، ثم يعتدل جالسا على حافة مرقده ، واضعا ساقا فوق الأخرى ويتثاءب من جديد ، ويمر بيده على ذقنه الخشنة فيصدر لها صوت كصوت شعيرات الفرشاة . وتمتد يده إلى قطعة من الجبن أو (البلوبيف) فى صندوق تحت مرقده ، يفردها على قطعة جافة من الخبز ، ثم يلتهمها على عجل ويجرع وراءها عدداً من كوبات الماء ثم يتمدد وهو يتثاءب بقوة على مرقده ، وبسرعة يواصل غطيطه من جديد ، فيعلو ويهبط كرشه المستدير ، بينما تسترخى بجانبه ذراعاه القويان فيبدو كقرد كبير

إن حياته تسير على وتيرة واحدة، ولكنه دائما كان ينتظر المفاجأة التى ترك لها أن تغير مجرى حياته، وتحولها عن طريقها المرسوم ، وجاءته المفاجأة فنقل إلى فايد ، فكاد يتذمر ويندب حظه السعيد، الذى يدفعه دائما من صحراء إلى صحراء ، ولكنه تذكر أن ليس أمامه سوى طريق واحد وهو القبول وإلا وجد نفسه فى الطريق عبثا يستجدى عملا ، وأخيراً سافر إلى فايد وسرعان ماعاوده الذى صرع به الأيام والسنين، وجعل له تاريخا مع وحدات الجيش ، يبلغ العشرة سنوات ، قفز خلالها مرتبه من التسعة جنيهات إلى الخمسة والأربعين .

جلس ذات يوم يحصى راتبه من الأوراق الخضراء والحمراء ، وسره وجود هذا المال الوفير ، وقبل أن يستسلم لشخيره المألوف ، طرأت عليه فكرة . . . كان الوقت ربيعا والطيور تملأ الدنيا بشقشقتها السعيدة ، وخلا المعسكر من نزلائه ، فقد كان المال والشباب يولدان حمية لا تنطفىء وشوقا محتدما يغمر قلوب الشبان زملاءه فيهاجرون كالطيور إلى الأراضى الخصبة حيث توجد أوكارهم العامرة بالحب والدفء والمتعة ، وجالت عيناه فى المعسكر الخاوى بمخيماته الممزقة المهلهلة، وهى ترتعد تحت ضربات الريح فأحس بالخواء

والفراغ يملآن نفسه ، ويمزقانها تماما كتلك المخيمات ، وشعر أن حبالا متينة تربط فؤاده وتثقل عليه وهو يحاول عبثاً الفكاك . . . لم لا يدخل عناصر التجديد فى حياته التى طغى عليها الملل، وكادت تنالها الشيخوخة ، إنه لو خصص لذلك جنيها واحداً من راتبه الكبير لم يخسر من أجل ذلك الكثير ، ولكن إلى أى مكان يمكن أن يذهب ليقضى الويك إند ؟ . . وخطرت له البحيرة الزرقاء ، والمدينة الأوروبية القائمة بمنازلها القرميدية وسقوفها المثلثة ، . . . ثم الفتيات من جميع الألوان والأجناس . . . البلوند (الشقراء) والجنجة (حمراء الشعر) والسمراء ، ثم دور لهوها وخيالاتها العديدة . . . إنها الإسماعيلية ، نعم يجب أن يقضى ليلته هناك حيث يسترجع ذكريات الماضى التى انهالت عليها رمال الصحراء ، أو عصفت بها رياح الخماسين وهى فى صراعها مع مخيمه ، لتطير به (كالبراشوت) إلى عنان السماء .

نفحته نسمات البحيرة الزرقاء ، وبدأ شريط من الذكريات يمر فى مخيلته وجلس على مقهى يجلو صدء عينيه وقلبه، وهو يخفق مع وقع خطوات الحسان فهذه لها جمال هافروديت ، ولتلك جمال المأسوف على شبابها فينوس ، أنظر إلى هذين الساقين ما أبدعهما ، وكيف كونا وصيغا ، ويذكر ما قاله الشاعر وما لم يقله فى وصف السيقان، وأخيراً تسرى به نشوة عجيبة ، ويشعر أنه قد أهاج كوامن شبابه المحزون . وقد تمنى أن تكون له عشرات العيون كى تتأمل وتدرس وتتمع ، وعشرات القلوب كى ترقص وتخفق وتتألم .

ولما استدارت الشمس وهى تتوهج توهج الشفاء، تحت أهداب البحيرة الزرقاء ، قصد إحدى دور الخيالة ليشاهد قصة عاطفية عميقة ، امرأة أحبت وأخلصت فى حبها فراحت تمطر حبيبها فيضاً من حنانها . وأحس أن الحب والحنان جنته المفقودة التى لن يهنأ بدونها .

وحول الساعة التاسعة مساء انتهى العرض ، فلم يشعر بالرغبة فى النوم والغطيط بعد، ولكنه أحس بالخيبة والمرارة يعصران نفسه ، إن العالم ملىء

بالقلوب المتحابة المخلصة، أما هو فوحيد ما عليه إلا أن يعبس للحياة، فتسخر منه ويلاطمها فتلطمه . وليس هناك من يهتم به أو حتى يعطف عليه فما بال من يضحى من أجله . . . ونظر حوله فى الطريق فاذا كله خصور وصدور متساندة تسير فى خطواتها بطيئة متقاربة، والنشوة تنثلها من عالم هذا الكون إلى عالم غير منظور .

خلبته تلك المناظر وسرى سحرها فى كيانه، فراح يدب على غير هدى، وهو يجتر الذكرى والنشوة... ، فهكذا يتقدم الليل ويزداد المجون التصاقا، حتى إذا ما استكن الليل إلى أحضان السكون ، ذابت كل نفس فى الأخرى وكل مهجة تلغم قلب، فاذا ما أشرق النور درجت على الأرض كائنات حيية صغيرة تملأ الدنيا صياحا ومرحا .

كان يتوق أن يمتع عينيه بالحب الدافىء العميق ، الذى يستكن بلا حركة أو التفاتة، وقد التف الجسدان كل منهما على الآخر فصارا نفسا تطلب وأخرى تستجيب... لقد ساقته قدماه من قبل ليرى ذلك المنظر، الذى كان له فى خياله أثر عجيب ،عندما ساقته قدماه ذات أمسية إلى شاطىء البحيرة الزرقاء، خلف الأحراش التى تنمو على شاطئها ، فاستدار إليها ووقع خطواته يمزق السكون وتكاثف الظلام يبعث فى قلبـــه الرهبة . . . ، ولكن مم يخاف فالحياة والموت لديه سيان .

وهناك بالقرب من الأحراش ، وفى نفس المكان السابق ، لمح شبحين يستتران فى الظلام، فسار مقتربا فى خطوات وئيدة واثقة وفجأة طرق أذنيه صوت جاف يقول : إسمع . . . فاستدار على عجل . . . ولمعت فى الظلام فوهة مسدس صغيرة ، وبرز له رجل من بين الأحراش آمرا : نقودك ...

سار وهو خالى الوفاض يسب ويلعن خياله المفاجىء ، الذى جره إلى هذا المكان المنعزل وجرده من نقوده ، وجعله هكذا على الحديدة فلا يملك حتى أجر الفندق الذى انتوى أن يبيت فيه ، إنه لم يعمل حسابا للمال الذى

كان معه ، فلو أنه لا يخشى على حياته الغالية ، ولكنه يخشى بالطبع على راتبه الذى عليه أن ينفق منه طوال الشهر . وتذكر صديقه القديم عزت الذى كان يعمل معه ، فسار إلى منزله ورحب به صديقه قائلا :

— مرحى أبا خليل . . يا ترى أى ريح هذه التى انتزعتك من صحرائك إلى هنا ؟ !

— إنه الربيع يا عزيزى

— الربيع ؟ . . أظنك قد انقلبت شاعراً أو فناناً أو شيئاً من هذا القبيل

— نعم . . نعم مما يؤسف له . . ، أنا فى حاجة إلى نقود أيضا

— نقود ؟ . . يا للشيطان وأين ذهب راتبك ؟

— أنفقته يا صديقى عن آخره حتى لم يعد معى رائحته

— يا للهول . . . إذن لا بد أن فى الأمر امرأة

— طبعا . طبعا . . امرأة تدفع بسخاء كل ما معك مقابل نظرة من عينها

— عينها ؟ ولم لا تقل عينيها ؟

— لأنه ليس لها سوى عين واحدة ولكنها ذات تأثير عجيب

— عجبا أن تكون لها عين واحدة وفاتنة أيضا . . هل تتمتع بجميع قواك العقلية

— طبعا هل تظننى جننت ؟

— لا ... بل شككت فى ذلك ... ومن هى فاتنتك الحسناء هذه التى سلبتك ؟ . . ، وهنا أجهش مغامرنا الجرىء بالبكاء وهو يقول . . . غدارة غدارة ، وفغر صاحبه فاه دهشة ، وقبل أن يتدفق فى سيل من الأسئلة ارتفع من صاحبنا غطيطة المألوف ، واسترخت عضلاته وترك لصديقه أن يؤمن بحقيقة نظرية دارون .

فصل عن المرأة تجارة عالمية

غانية من الريف

لم تكن (فوزية) من فتيات المدن المتفرنجات، بل كانت قروية من أولئك اللواتى تراهن فى فجر كل ريف، يحملن جرارهن ويسرن بها ذاهبات آيبات فى طريق النهر . . . نعم لقد حملت الجره وعرفت كيف تنصبها على رأسها وتتبختر بها فى غرور ملكة متوجة

وقد كان من فضل (البلاص) عليها . أن استقام عودها وامتشق قوامها وقد تصلبت تحت حملها الثقيل، فتراها مرفوعة الرأس بارزة الصدر منتصبة العود . كما وأن الطبيعه لم تبخل عليها بالجمال ، فوهبتها البشرة الوردية الصافية والعيون النجلاء والابتسامة المشرقة التى تأخذ بألباب الكثيرين :

وقد كانت (فوزية) تعرف ما لجمالها من تأثير وإغراء ، لكثرة ما كيل لها من كلمات المدح والإطراء وعرفت أيضا أنها تعيش فى قلوب الكثيرين من شبان القرية ، وأنها موضع حسد كثيرات من شاباتها فكانت كثيراً ما تقع المعارك والمشاحنات بين شبان كفرها وشبان الكفور المجاورة ، لأن أحدهم حاول أن يحظى منها بنظرة عابرة ، يختلسها من تحت نافذتها، أو أسعده الحظ بملاقاتها ، وكانت تجد فى قلبها دائما متسعا للجميع، وتعجب لِمَ يحاول البعض أن يحد من سلطانها، وقسره على شبان كفرها دون شبان سائر الكفور، ولم تتغافل هى عما فيهم من فتوة وحيوية أولى باهتمامها ، فكانت تحقد أحيانا على شبان كفرها الذين يقفون فى سبيل سلطانها ، ولم يكن هناك أعظم من سرورها وفرحتها عندما تقف فى نافذتها ، ترقب المعارك الدائرة والصرعى الذين يتساقطون قربانا على مذبحها .

وفجأة استراحت هذه القرى من المشاحنات والمنازعات المستمرة من أجل (ست الحسن)، إذ قرر والدها الانتقال من الكفر الصغير، إلى بلدة المركز حيث توجد المدرسة الابتدائية، التى كان يرسل إليها أولاده قبل مطلع الشمس

وجدت فوزية نفسها تقيم فى البلدة، بين كثيرين من التجار والموظفين ، حيث توجد كثيرات من الفتيات الجميلات المهذبات وشعرت أنها ملكة فقدت عرشها وملكها. وقد نفيت فى هذا المكان حيث لا يلفت جمالها أحدا، ولا يجمع حولها تلك المظاهرات، التى كانت تضعها فى مستوى أسمى من مستوى غيرها من بنات جنسها، ووجدت أيضا أن الوسط هنا أرقى بكثير من وسط الكفر، فهنا التجار والموظفون الذين لهم مثل عليا للجمال، ومقاييس أخرى يحكمون بها على الجميلات مما يضعها فى مصاف الفتيات العاديات .

كانت تصلها الصحف الصباحية تزينها صور نساء بلغن ذروة الجمال والكمال، فتشعر بالحسرة على ملكتها الضائعة، وذات يوم وفى نوبة من نوبات الأسى هذه التى ألمت بها، قربت إحدى الصور الجميلة إلى وجهها . وقامت إلى المرآة تقارن بينها وبين جمالها ، ولم تلبث أن انبسطت أساريرها ولمعت الابتسامة فى ثغرها ، فقد كان جمالها من النوع الساذج الذى لا يعرف تجميلا ولا تصنيع بينما كانت الأخرى تزدحم بهما وسألت نفسها — ماذا لو حاولت بعض هذا التصنيع ؟

كان لها من ماضيها ما يشجعها على المحاولة ، كما وأنها لا تستطيع الحياة دون أن ترى الرجال يخرون صرعى تحت أقدامها، وأنها إذا استطاعت ان تفرض سلطان جمالها هنا فستفرضه على المهندسين والأطباء والموظفين وأبناء التجار وهم طائفة تخالف عشاقها السابقين من الفلاحين الحفاة العراة .

وبسرعة قامت إلى صوان أختها، الطالبة بالقسم الداخلى بمدرسة المديرية الثانوية . . ، أما هى فلم يكن لها غرام بالعلم والمعرفة ، أكثر من أن تعرف عن نفسها كأنثى لها تأثيرها القوى على الرجال . . وفتحت الدرج وراحت تتأمل ما فيه ، فهذه علبة (بودرة) وتلك زجاجة (مينكير) وهذا قلم (روج) فأمسكت به ، وراحت تتأمل لونه الأحمر الصارخ الملتهب واندفعت به إلى

مرآتها تخصب فى عناية شفتيها بلونه النارى ، الذى يمثل الشعلة التى تتأجج فى باطنها .

وأخيراً وقفت إلى المرآة صديقتها العتيدة تستشيرها ، فعكست صفحتها وجهها المصنوع آية من آيات الجمال فقامت واثبة على قدميها ، وراحت ترقص وتدور فى حجرتها والفرحة لاتكاد تسعها . . أليست فتنة للناظرين ؟ ؟ . . أليست أجمل بكثير من هذه الصور المطبوعة ؟ . . إذن فقد آن لها أن تسترد سلطانها العتيد وتتربع على عرش أرفع من عرشها السابق .

ومن تلك الساعة خلعت فوزية رداءها الأسود الطويل ولبست الملابس الأفرنجية التى كشفت عن مفاتنها ، وجعلتها مطمع كل من يراها ، وقد وقع فى غرامها أول من وقع طالب بالمدارس الثانوية راحت تستعيد معه غرورها وتسترجع به ثقتها بجمالها ، ولم تلبث أن نبذته وتركته يشقى بحبها . . ، وساقت إليها الأقدار شاب من ذوى قرباها راعه ما رآه من تحولها وأناقتها وفتنتها وبسرعة وقع فى حبائلها فراح يحظى معها بأهنأ ساعات الغرام ، وكانت هى تحسبه أولى بهذا النعيم من غيره من الغرباء ، فلم تكن لتبخل عليه بشىء وكان يسرها أن تعرف شدة رغبته فيها وكثرة إلحافه عليها ولكن لم يكد ينقضى زمن على هذا الحب حتى ضجرت نفسها بهذا الشاب الأصفر الهزيل ، وتاقت نفسها إلى رجل محترم توقعه فى حبائلها ، حتى يهبها إسمه ويمنحها الحرية أن تفعل ما تشاء وتأمن شر تلك التقولات والتخرصات التى تثور دائما حولها : ورغم تنقلاتها وكثرة زياراتها لم تعثر على بغيتها فهى إما تقع على تلميذ بالمدارس الابتدائية أو الثانوية على الأكثر ، أو موظف ذو زوجة وأولاد ، وكادت تيأس من موقفها وعجبت كيف تبور سوق الجمال ، وأخيراً ساقت الأقدار بغيتها .

حدث ذلك عندما مرض والدها مرضا شديداً ، وذهب أحد إخوتها ليدعو الطبيب الوحيد الموجود بالقرية ، ووقفت هى على رأس الدرج تنتظر الطبيب العجوز حتى تخبره عن حالة والدها ، ولكنها فوجئت بشاب طويل

القامة حاد النظرات، كانت عيناه تلفانها من قدميها إلى هامتها فتراجعت مبتسمة، ولم تكن الابتسامة لتفارق شفتيها ، وابتسم الآخر مأخوذا بابتسامتها ورقتها ، وقال مقدما نفسه :

— أنا الدكتور منير ، وقد حللت محل الدكتور شاكر الذى قام بالإجازة .

لقد شعرت وقتها بقلبها يدب دبيباً عنيفا ، وأحست أن حياتها ستسلك منذ اللحظة طريقا جديداً ، . ساعدته فى سماع أنفاس والدها وعندما أمسك بيدها ثم نظر فى عينيها وهو يريها فى أى مكان يجب أن تضغط من ساعد والدها ليغرز محقنه شعرت أنها غابت فى سكرة ووقفت تسائل نفسها عما إذا كان متزوجا أو أعزب . ، ولكن هل للمتزوج مثل تلك النظرات الجائعة الثائرة وتلك اللمسات الساحرة المثيرة ؟ ! لقد عرفت مثل هذه النظرات من قبل فهى ذائعا فى عيون الشباب العزب الذين تجوع عواطفهم إلى النساء .

لم تنم ليلتها وراحت تتقلب فى فراشها مسهدة وتمنيت ، لو كان رفعت قريبها بقربها فيسرى عنها وينسيها الدكتور منير مؤقتا .

وفى الصباح أرسلت خادمتها له تبلغه تحياتها وتسأله أن يتكرم بعيادة والدها ، ولم يكن الشاب بأقل منها لهفة على زيارتها ورؤيتها ، وفى الحال ترك مرضاه وأسرع فى طريقه إلى منزلها ، وهناك حظى بمشاهدة الفتاة التى تهتم كثيراً بصحة والدها، شاهدها فى أروع صورة فلم يستطع أن يحول عنها عينيه . وقد لعب جمالها بصوابه . . ، وتكررت زيارته بعد ذلك للمريض ، ولو أن أحدا لم يعطه أكثر من حق زيارته الأولى، ولكنه كان ينتظر مثل هذه الزيارة بفارغ الصبر إذ استطاعت ابتسامتها أن تملأ خياله وتسيطر على تفكيره وإدراكه .

وشفى المريض طبعا بفضل عناية الدكتور منير الذى أرسلته العناية الإلهية لإنقاذ الأب الشيخ ، ولكن كان من نتيجة ذلك أن حزنت فوزية

حزنا شديداً لبرء والدها بمثل هذه السرعة، فانقطعت بذلك زيارة الطبيب لها وجلست ذات أمسية تفكر فى موقفها : وهل انتهى دورها عند هذا الحد؟ ولكنها قرأت فى عينيه غير ذلك ، وعليها أن تخطو الخطوة التالية . وفجأة تبلجت أمامها فكرة . . لم لا تقوم هى بزيارته أليس طبيبا فى استطاعة أية فتاة زيارته للاستشارة ؟ وبسرعة ارتدت ملابسها واستأذنت من أمها كى تذهب إلى الطبيب، ليعالجها من الأرق الذى ألم بها فى الأيام الأخـــيرة ورحبت أمها بالفكرة منوهة إلى (شطارة) الدكتور منير

وهكذا لم يكد ينته الطبيب من آخر مريض لديه حتى فوجىء بتلك التى خلبت لبه وأخذت عليه مشاعره، ويابتسامة متبادلة قادها من يدها إلى حجرة الكشف ولم يكد يغلق الباب خلفه حتى احتواها بلهفة متعطشة .

واظبت فوزية على (العلاج) الذى كان له أثر كبير فى تحسن صحتها ومزاجها ، وقد سرها اعترافه لها برغبته فى زواجها وعزمت هى من كل نفسها ألا تفلته أبداً من يدها ، وكانا فى العادة يتعاملان كما يتعامل المحبين ولكنه كان يندفع فى طريق اللهفة والتشوف ، فكان دائما يطلب المزيد ، وانتقلت المقابلات من حجرة (العمليات) إلى حجرة نومه الخاصة وكانت ترى فى ذلك رباطا يربطه بها ، فلا يمكن أن ينساها أو يخلفها ، فهى تعرف أن إقامته فى القرية مؤقتة وكان هو يزداد شوقا وولعاً بها ، بل أصبح شارد الذهن يقضى سويعاته يحلم بها ، ويستعجل الزمن حتى يلقاها فأهمل مرضاه ، وارتفعت من حوله أصوات الاستهجان والاستنكار ، وصار الناس ينتظرون عودة الدكتور شاكر بفارغ الصبر ، لينقذهم من الإهمال الذى تورط فيه بديله، وسرفوزية أن تسمع وتلاحظ ماوقع فيه الطبيب المسكين وعرفت أنها قاب قوسين أو أدنى من أن تحقق أغراضها ،

وفوجئت ذات ليلة عند ما أخبرها الطبيب بصوت حزين ، عن قرب عودة الدكتور شاكر وأنه أرسل إليه أن ينتظر عودته خلال هذا الأسبوع

فاعتراها وجوم غريب وشعرت أن الطير على وشك الفكاك ، وأنها ستهزم فى المعركة التى بنت عليها آمالها ، وفى الحال إغرورقت عيناها وقد أحست بالهزيمة القاهرة تصدم خطتها وتقوض آمالها ، فراحت تبكى وقد أسندت رأسها إلى صدره ، فراح يمسح شعرها الكستنائى كما يمسح ظهر قطة مدللة ، وأحست فى نفسها ثورة لأن تفعل كل مستحيل للاحتفاظ بما فى يدها وفجأة أطبقت على شفتيه فى قبلات ملتهبة وفى رغبة وحشية ضمته إلى صدرها . . . : وغابت الأنوار وتباطأ الليل ، وسكنت كل همسة ونسمة ، ولم يكن هناك فى ظلام تلك الحجرة إلا الأنفاس الثقيلة المشتعلة .

ظنت أنها وضعت فى يديه قيداً لا ينفصم ، ولكنها كانت مخطئة فإنه لم تكد تشرق الشمس أو تفتح عينها على الكون الناعس ، حتى كان منير يتثاءب ويتمطى ولم يكن له من قبل أن تذق عينيه طعم النوم أما ذلك اليوم فقد شعر كما يشعر جواد السباق عند ما يصل إلى نهاية الشوط ويعرف أنه آن له أن يستريح .

وعاد الدكتور شاكر ولكن الدكتور منير لم يستطع أن يفارق القرية إذ شعر أنه مرتبط بها برباط وثيق ، وقد حاول الفكاك ولكن عبثاً ، إذ وجد أنه لا يملك غناء عن تلك المرأة ، فكان كلما أمسى الليل وركن إلى الوحدة يشعر بحاجته إليها ، وقد سأل زميله أن يعاونه أسبوعا آخر لأنه وجد فى ذلك مرانا كبيراً ، فسمح له بذلك عن طيبة خاطر ولكن لم تلبث عينى الشيخ المدربة الفاحصة أن أدركت ما ألم بزميله الشاب ، ثم ما لبث أن رآها فى عيادته ولمس التحول الغريب الذى طرأ على صاحبه ، وذات صباح جلس الدكتور شاكر إلى مكتبه يكتب بعض التقارير إلى مأمور المركز ، بينما جلس منير خلف مكتبه وقد دفن وجهه فى كفه شأن العاشقين ، وراح فى تفكير طويل فيرسل إليه الطبيب الشيخ نظرة مشفقة ، ثم لا يلبث أن يتخلى عن أوراقه ويسير بهدوء إلى زميله ، ويلمس كتفه فيفيق الآخر من عالمه المشتت ، ويرفع إليه عينين فيهما

مزيج من الحزن والتساؤل أو فيهما نظرة حيوان جريح . وسأل الشيخ وهو يدقق النظر فى عينيه :

— ماذا بك يا فتى ؟ ؟ ! فيجيب الشاب متململا

لا شيء . . هل ترى فى شيئا غير عادى ؟ ؟

— طبعا . . طبعا إن كل إنسان يستطيع أن يراه ، فيجيب الآخر مراوغا

— إنك تتوهم أشياء غير حقيقية

— أحقا ؟ . . أنا طبيب وأستطيع أن أفهم معنى الظواهر وأظنك توافقنى على ذلك ؟ ؟ ! !

— حقا . . ولكن ليس للطبيب أن يحشر عمله فى علم النفس

— ولكن ليس هذا من اختصاص علم النفس الذى تتحدث عنه ، ولكنه من دراسة الظواهر ، والمشاهد والاعراض التى ندرسها نحن فى مرضانا

— حسنا . . ولكن مرضى لا يدخل فى اختصاص الطب وإلا استطعت أن أصف لنفسى شيئا :

— إذن فهى امرأة ! ! ! فيطرق الآخر صامتا ولا يجيب

فيقول الشيخ متمما حديثه

— لم أكن أعلم أنك ضعيف هكذا أمام النساء ، ولو علمت لحذرتك ، وحذرتك بالخصوص من إحداهن ، أعرف أنها تهوى اللعب بالرجال فيرفع الفتى رأسه ويصرخ بحدة

— ماذا تعنى بكل هذا ؟

— إمرأة . . . لا تخفى عنى الحقيقة فقد همست بها إلى الفلاحات فى المستشفى هذا الصباح ، ولم أصدقهن وقتها ولكن ما أن رأيتك حتى تأكدلى صدق ماسمعت . . . إسمع . . . هى كاعب حسناء خفيفة مرحة . . لها إبتسامة تدير الرؤوس . . . وشعرها يجمع بين الخمر والنور وفى عينيها حرارة ونداء . . . وبثغرها شعلة من سعير . . . أليست هذه هى ؟ ، فيطرق الشاب

يائسا وقد انكشف سره ويلحف عليه الآخر بالسؤال، وأخيراً يومىء برأسه موافقا ويدور الشيخ فى الحجرة ، واضعا يديه فى جيبي سرواله هاتفا وكأنه يحدث نفسه :

— كانت تزورك أثناء الليل ... أليس كذلك ؟ وتذيقك أنواعا من المتعة لم تعرفها طول حياتك ... وهى تسكب فى أذنيك كلمات الوله والهيام ... صارت هى كل دنياك وكل أحلامك ، وقد فتحت أمامك الطريق إلى السراب . . فعشت تحترق وتشتعل بالنزوة ... إنه طريق جميل ممتع ولكنه الجحيم المملوءة بالألم والعذاب والأرق ثم الحرمان ... وإذا كنت لا تدرك خطر هذا الطريق الذى فتحته تلك المرأة ، وفرشته بالورد ، فإنه عما قريب ستنمو له الأشواك الحادة التى قد تمزقك ، . ظن الشاب أن صديقه فيلسوفا راح يصف الأمر كما يتراءى لخياله الخصب ، فنظر إليه وعيناه تحملان معنى الشك والتكذيب واستتلى العجوز قائلا

— إنك لاتصدق ... وأعلم ذلك ولكن عليك أن تعرف إننا إذا قبلنا مهنتنا كأطباء ، علينا أولا أن نقوم بخدمة المرضى المعذبين، ولا نضيع حياتنا سعيا وراء الباطل ، وعلى الآن أن أقوم بزيارة مريض فهل توافق على أن تصحبنى إليه ، فأومأ الآخر موافقا ، وحمل الشيخ حقيبته الجلدية وخرج إلى الطريق وراح يدور ويلف فى حوارى القرية وأزقتها ، وأخيراً وقف أمام منزل تبدو عليه بعض مظاهر النعمة ، وراح يدق الباب ، وسألت عجوز عن للطارق ، فأجابها الشيخ ، وبسرعة فتح الباب وراحت المرأة ترحب بمقدمهما وسألها — كيف حال مصطفى اليوم، فأجابت وهى تمسح الدموع التى انهمرت من عينيها :

— لم يتحسن بعد ياسيدى وقد ازداد هذيانا عن ذى قبل ، وأخشى أن يكون سائراً إلى الجنون

وراحت المرأة تبكى بينما تقدم الطبيب إلى حجرة مغلقة وأدار مفتاحها

ففتح الباب وشاهد زميله منير إنسانا بل حطاما مكوما على الفراش لا يبدو منه إلا عينان ناريتا النظرات ، راح يأكل بهما الداخلين وقال الشيخ لزميله

— لا خوف منه فهو لم يبلغ بعد ذلك الطور العنيف ، وجلس على حافة المرقد تحت قدمى المريض ، وأشار إلى زميله أن يحتل المقعد المجاور وبدأ حديثه قائلا :

— مسكين هذا الشاب إن كل ذنبه أنه خلق حساسا مرهفا ، وقد أحب امرأة من كل قلبه ومن كل عقله ، ولكنها لم تكن جديرة بحبه ، ولما عرفت غرامه وتعلقه بها نبذته نبذ النواة ، ولم تحفل بقلبه الفتى الذى تفتح لها فراحت تذيقه أنواعا من الهجر والحرمان بل والغيرة والدناءة ، وأخيراً ها أنت تراه صريع حبه صريع المرأة التى لم ترحم عاطفته وحبه القوى الجارف . الذى لم يعرف شيئا سواها ... يظل شارداً مفقوداً فى أفكاره البائسة لا يكاد يعى مما حوله شيئا أو يشعر أنه حى يتنفس فى هذه الحياة ، وإذا ما أفاق تراه يردد إسمها وكأن روحه تحترق ، ويطل الدمع والبكاء من عينيه . ولكن لا تلبث أن تختطفه نوبة رحيمة من عذابه فلا يشعر أو يعى وقد تسألنى . . هل أظهرت هى شفقة أو عطفا على ذلك الذى أحبها إلى الجنون ؟ ! ! ولكن الجواب على ذلك مع الأسف ... لا ... وعندما وصلها نبأه راحت تضحك وتهزأ قائلة كنت أحس بهذا الجنون فى حركاته فتحاشيته ، وهكذا خلعته من قلبها كما تخلع جوربها العتيق .

كانت الأم قد انتهت من تعقيم الحقن ، فجاءت به وقام الرجل بحقنه بحقنة من (الانسولين) ثم ترك للشاب أن يحقنه بأخرى من الجلوكوز ، وبغتة يفيق الشاب وتدور عيناه فى الغرفة دورات سريعة ، وتجحظ عيناه وهو يهتف فوزية ... فوزية ويتأوه بشدة ويغيب فى عالمه البعيد .

شعر منير بقلبه يقفز إلى حلقه وأن الأرض تميد تحت قدميه ، ولولا أن سنده ساعد زميله القوى لسقط على الأرض وسار إلى الخارج وهو كالمأخوذ

لايكاد يشعر بماحوله ، ولم تلبث أنسام الريف الحرة الرطبة ، أن ردت إليه مشاعره ... إذن فوزية كانت المرأة ، وفوزية هى التى دمرت حياة مثل هذا الشاب ، وفوزية ذات القلب القاسى الذى لا يرحم، ووجد نفسه يهمس إلى صديقه بالإسم الذى كان يطوى عليه حنايا قلبه .

شعر بحقد على هذه المرأة المجردة من العاطفة ، وعجب لدموعها وعواطفها المصطنعة وأحس أن حقده لو استمر فى تلك القرية، سيدفعه حتما إلى ارتكاب جريمة تقوض حياته ومستقبله .

فى ذلك الصباح بلغ فوزية خبر أزعجها، فقد أخبرها الممرض أن صديقها قد يرحل فى قطار المساء فارتاعت لهذا النبأ المشئوم وواحت تفكر فى طريقة تبقيه بقربها وواتتها الفكرة سريعاً ... كان قطار المساء يصل فى السادسة أما الآن فإنها لم تكد تبلغ الرابعة بعد إذن فأمامها ساعتين تتدبر فيهما ، ولكنها لم تكن فى حاجة إلى كل هذا الوقت الطويل، فاندفعت إلى صندوق العقاقير تفتش بين زجاجاته المختلفة الأشكال والأحجام . وأخيراً أمسكت بزجاجة صغيرة داكنة اللون، تتأمل كمية العقار الصغيرة الباقية بها، وفجأة يرتفع وجيب قلبها وهى تنظر إلى الزجاجة فزعة، وانطبع على وجهها الارتياع الشديد وهمست كلا قد تكفى هذه الكمية لموتى... وهبت إلى النافذة وسكبت بعضا مما فى الزجاجة حتى لم يبق منها إلا قطرات قليلة ... لم تكن تريد أن تموت فإن الموت يفزعها ويخيفها ، وهى التى لم تعرف سوى السماء الصافية الزرقاء والخضرة الزبرجدية والشمس الباسمة الساطعة ، ثم الحياة بمتعتها الكثيرة التى لم ترو منها بعد شبابها ، ولكنها كانت تلعب دورا من تلك الأدوار الكثيرة التى يلذ لها ان تلعبها أو تمثلها ...، نعم سيأتى على عجل ويعمل كل مايستطيع لإنقاذها ، ثم يظل بقربها يرعاها ويعالجها .

ووجدت من نفسها الشجاعة فرفعت الزجاجة إلى شفتيها، وجرعت مابها دفعة واحدة وأحست كاللهب تضطرم فى جوفها، وهنا فارقتها شجاعتها . . . ألا يجوز أن تكون هذه خاتمتها، وأن الكمية التى جرعتها (من صبغة اليود)

كافية للقضاء عليها فتفقد الحياة والدنيا التى تحبها!!. وفجأة نراها تصرخ وتستغيث وهى تبحث عن أمها مرددة ... إنتحرت يا أماه انقذونى النجدة النجدة... إدعوا الطبيب وبسرعة اشتد الهرج والمرج وأسرع الجميع لدعوة الطبيب بينما استلقت هى على مرقدها، ينهكها الخوف والوهم فذهبت فى غيبوبة.

قام الدكتور شاكر بغسل أمعائها وقال مطمئناً من حوله لا تنزعجوا فالسكينة التى شربتها من اليود لا يمكن أن تضرها حتى، ولو لم أقم بغسل أمعائها وابتسم وهو يقول — إنها لما تجرع أكثر من قطرات قليلة.

وأفاقت هى وفتحت عينيها وقد غمرتها فرحة غريبة لجواز حيلتها، وقد ظنت أن الدكتور منير هو الذى يقوم بعلاجها فحولت إليه وجهها، ولكنها أجفلت وأحست بأفظع من السم يسرى فى كيانها

وتأوهت وهى تشير بيدها سائلة — انت ؟!

فأجابها الطبيب العجوز بابتسامة ماكرة

— نعم أنا . ، لأن الآخر رحل فى قطار الرابعة

شفيت فوزية أخيراً ووقفت فوق سطح منزلها تستعرض القرية الهادئة وسألت نفسها ترى من أين سيكون صيدها القادم . . أمن دار البريد ؟ ... أمن محطة السكك الحديدية ؟ . . أم من بنك التسليف ؟ ؟ ووقفت حائرة تستعرض فى خيالها شريطاً من الشبان والموظفين، ولكنها رأت فجأة إنسانا قصيراً يحمل حقيبة جلدية فى يده ويضع يده الأخرى على صدره يخترق حقل برسيم، فى طريقه إلى القرية وراحت تتأمل شعره الأبيض الذى يشبه ثلوج الشتاء ومشيته الوئيدة المتباطئة، وقد كان الشيخ يعانى أثناء سيره أزمة من أزمات الربو، وبحث فى حقيبته عن قرص من (الأفدرين) فلم يجد، فسار وهو يشعر بالاختناق يجاهد فى كل خطوة وقد احتقن وجهه فصار كشمس المغيب، ونظرت هى إلى وجهه الأحمر وأحست أن فصلا جديداً قد تفتح تلك اللحظة فى حياتها، وهمست بين شفتيها إنه صيدها الجديد الدكتور شاكر الرجل الخبير بالنساء.

نفس حائرة

أيها الشحوب المرتسم فى صفحة الأفق . . . ، ويا أيتها النار المشتعلة فى سويدائه ، هل آن للشمس أفولا ، أم هى لحظة تسبق وقت البزوغ ؟ . . هذه الأشجار مثقلة بثمارها ، والأنهار غاصبة بمياهها ، والطيور تنشد أحلامها . . . ، أهناك حياة فى ظلام ، أم فى إشراقه النور ؟ . . .

خبرنى أيها الكون وقد فصلت وادى النور عن وادى الظلام . . . ، فما هذا الشحوب . . . ، أهو شحوب الأمل ويقظة الحياة . . . أم هو شحوب النهاية المظلمة ؟ . . . شحوب ستعود معه الحياة أم تخبو ؟ . . .

لقد قضيت عمرى واقفاً بالضفة النائية ، ارقب ركب الحياة السائر وهو يتعاقب ، فتغمرنى الشمس ولكنى لا أشعر بفرحة النور ، لأن قلبى يعيش فى ظلمات . . . ، وهذه أناشيد الطير التى كثيراً ما طرقت أذنى لا تجد سبيلا إلى إسعاد نفسى . . . ؟ وهاهو موكب الليل البارد يزحف وينفذ إلى أعماق نفسى ، فينشر فيها الرعدة الباردة ويحرك الألم الدفين ، وحولى آلاف من الأخيلة المتراقصة تثب فى الظلام . . . ، فهذا أملى الذى اندثر وضاع ، وتلك الآهة السارية هى صوت حبى الذى تبدد ، وتلك الهولة المبهمة هى قلبى المحطم ، وهذه الشياطين المنقضية هى أشجانى وآلامى وطيف روحى المعذبة . . . ، فهل تجد حياتى شروقا بعد غروب . . . ؟ وهل يمكن أن يصرح فى نفسى لحناً واحداً من ألحان الشباب ، وأن تحيا شجرتى اليابسة فتسكنها الطيور وتغرد فيها البلابل ؟ . . .

إن ضوء القمر الفضى وهو يكسو كل كائن بنوره السحرى ، قد طبع لى وجهك على صفحة الماء المختلج ، فى ابتسام وعبوس فى فرح وحزن فى ضحك ثم بكاء ، فاسكب لك من دمعى قطرات حارة تدفىء لك الماء الرطب .

وهذا الليل الخداع لا يمكنه أن يبلغنى حقيقة حالك . . . ، فكيف أنت يامن أحببت . وكيف حالك يامن ملكت قلبي ثم انتزعته ؟ . . إنه يسعدنى ان أرقب خيالك فى هذه المرآة الحية ، أو هناك خلف الأشجار والتلال أو بين الغيوم والسحب ، فأقف وحيداً أناجيك فى جلال الليل الساكن حيث لا عزول ولا حسود..أنظرى إلى عينى وقد أضناهما السهر وانظرى إلى وجهى الشاحب وجسمى الضامر وقد أضناه التفكير . . . لقد أحببت فيك الحب الذى فقدته فيك وتلك العواطف التى ضاعت فى بعدك . . . أما انت فأنا متخيل حجرة وردية الستائر تصرخ من خلها أضواء حمراء . . . ، فقد سعدت ببعدك عنى ولم تحفل بشقائى

لم احتجبت أيها القمر ؟ هل لتسحب الستر على معالم الكون . . . فأين وجهها ، وأين ضحكها وأين وأين ريحها ؟ . . . لقد ضاعت منى فى الظلمة وضعت أنا معها فى الوحدة فلا أجدها ولا أجد نفسى .

تصحيح الخطأ

وقعت عدة اخطاء مطبعية فلزم التنوية

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	٢٢	وحدت	وجدت
٥	٢١	يورعها	يوزعها
٩	١٦	البيضا	البيضاء
١٠	٤	والصيحان	والصيجان
١١	١	اشفيف	الشفيف
٢١	١٣	لزوجيه	الزوجية
٢١	١٦	متفوفا	متفوقا
٢٢	٧	نحفر	تحفر
٢٢	١٧	يعد	يعد
٢٢	٢٢	الزلاله	الدلاله
٢٧	١	ميدان	ميناء
٣٨	٧	دفيق	دقيق
٤٠	٧	نشوه	النشوة
٥٧	٥	لأجد	أجد
٥٧	٩	المسوخ	الممسوخ
٥٩	٣	ارقب	أرقب
٦٣	٧	واحياتا	واحيانا
٦٥	١	يتصفح	يصفع
٦٨	٢٤	ماجعلني به ثق	ماجعلني اثق به
٧٢	٢٥	فرجت	فرحت
٩٢	٩	وواحت	وراحت

obeikandi.com

الفهرس

رقم	الموضوع	صفحة
١	التقديم	٣
٢	المقدمة	٤
٣	لغة القيثارة	٥ — ٧
٤	أغنية بوهيميا	٨ — ١٢
٥	متحف الذكريات	١٣ — ١٩
٦	نفرتيتي	٢٠ — ٢٦
٧	الروح الخالدة	٢٧ — ٣٣
٨	المدمرون	٣٤ — ٣٧
٩	على أبواب الجحيم	٣٨ — ٤٦
١٠	اللغز الغامض	٤٧ — ٤٩
١١	ماريا	٥٠ — ٧٤
١٢	إبن بوهيميا	٧٥ — ٧٦
١٣	لقاء	٧٧ — ٧٨
١٤	على ضفاف البحيرة الزرقاء	٧٩ — ٨٣
١٥	غانية من الريف	٨٤ — ٩٤
١٦	نفس حائرة	٩٥ — ٩٦

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

obeikandl.com